مهرجان القراءة للجميع

٢٠٠١

مكتبة الأسرة

عبد الحكيم قاسم

ديوان الملحقات

الأعمال الإبداعية

الهيئة المصرية العامة للكتاب

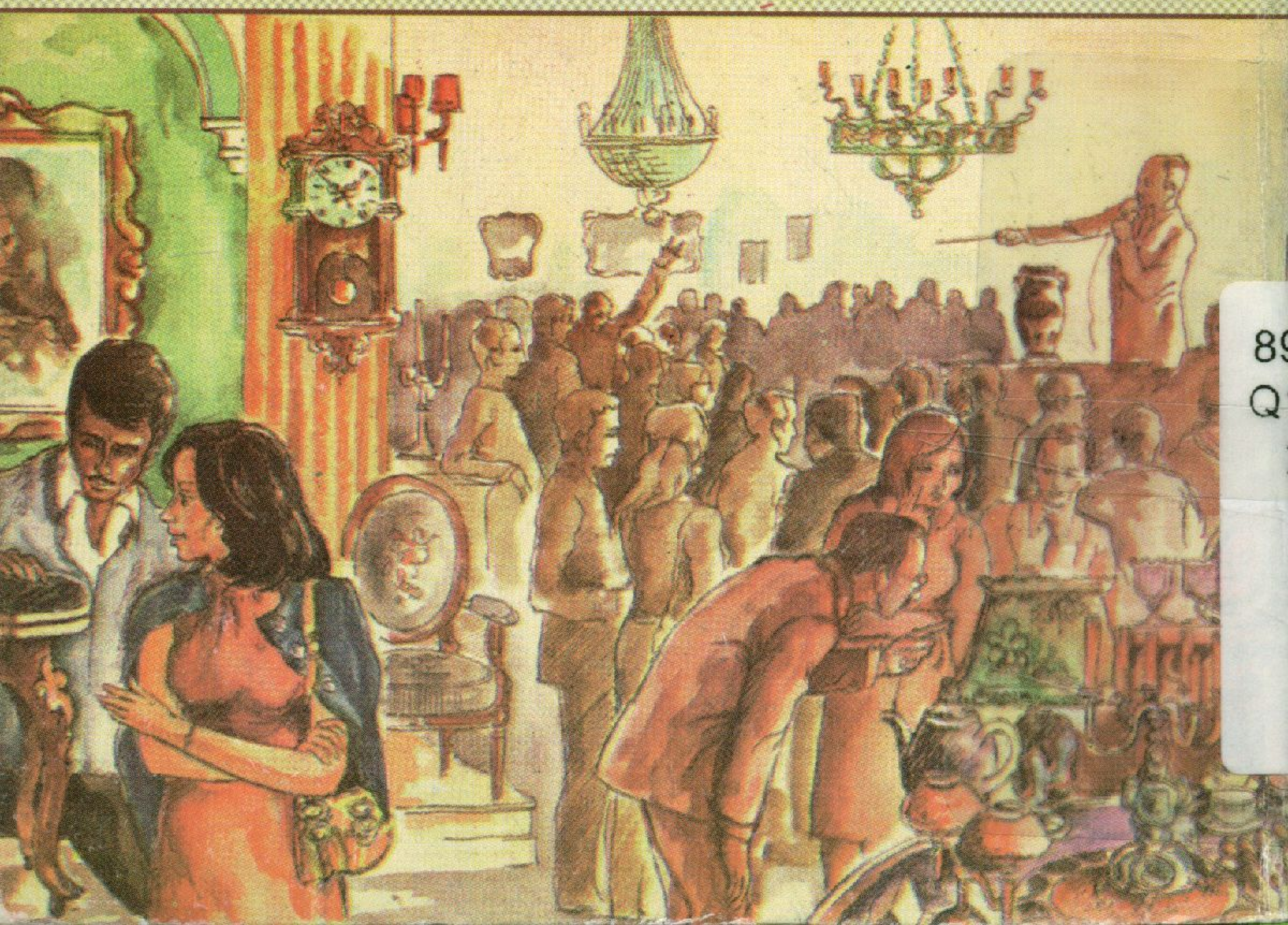

89
Q

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : المزاد

التقنية : ألوان مائية على ورق

المقاس : ٢٥ × ٣٥ سم

تـــــاد

فنان تشكيلى مصرى، يعمل فى مؤسسة روزاليوسف، ويرسم لمجلة صـبـاح الخـيـر، وهو فنان دائم التطور والدائب، ينجز أعـماله المهمـة فى صمت وتؤدة، دون ضجيج وطنين، فنان حقيقى مثابر يتقدم على مرسل، مباغت دوما للقارىء والمشاهد، لم تأخذه الصحافة من الفن الخالص، فغالبا ما يقدم أو يشارك فى المعارض الفنيـة الخاصة والجماعيـة، المحليـة والدوليـة، وفى كل معـرض يقدم رؤى جـديدة، ويغـوص فى العـوالم. المصريـة، والأعماق الشعبية، والبيئة البكر التى لم تفض بكارتها على المستوى الفنى.

محمود الهندى

ديـوان الملحـقات

ديـوان الملحقات

عبد الحكيم قاســم

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

ديوان الملحقات

عبد الحكيم قاسم

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

جدل العنف والوهن ٠٠ !

● صاحبة النزل :

تسكن فى الطابق الأول ، والغرف اللاتى على الأرضى تؤجرها مفروشة لطلبة الجامعة ، أما فى الصيف فيعمرها الآتون ينشدون الطراوة وريح البحر ٠ نحن الآن فى عز الشتاء ، وهموم الطلبة ، تنزل كل يوم فى الصباح تنظفه وتروق ، وتنظر فيما حصل من تلفيات، وتؤنب الساكنين على النظام ، وهى فى ذلك مسلحة بسلاح الاسكندرانية من الشخر والشخط والنطر والأح ، وكل ما يبلى الغريم بالخرس والذهول فى عينيه وربما يفغر فمه خيبة وتعسا ٠

والولد الساكن فى غرفة تحتية يقول لها :« حاضر ! طيب ٠٠ حاضر ياستى ٠٠ ! » وتفكر الولد فى أمر السيدة ، انها امرأة عجوز ، أهرمها السن ، فليس لها

علي مولا

من الطلبة الساكنين الا فلوس الايجـار ، ثـم تصعـد لشقتها بعد التفتيش اليـومي لزبائنها من النســاء الموسـسـات ، كلهن جئن اليها يشربن قهوتها ، ثم ان المعلمة تشوف لهن الفنجان ، وتقـول للواحـدة منهن أربع كلمات حسان طيبات • اذن تطلع علب السجائر ، والعزائم ، وبالقطع الفضية ، وورقات النقود ، وكل واحدة من ضيفاتها تبقى عنـدها ردها من الـزمن ، وتذهب بعد ذلك لشـغلها ، وتبقى السـيدة وحـدها مشغولة بصداعها •

ثم تبكر لجولتها اليومية تفتش على غرفها • والولد ينتظرها • قال فى نفسه انها امرأة هرمة ، لكن بقى لها بهاء فى الوجه ، يتورد اذا ضحكت •• آه ياسلام • وهى قالت فى نفسها انه الولد الذى سكن عندها أخيرا له عليها عين • تحـذر عينه • تـدور وتلف ، والولد قاصدها ، أردافها وصدرها ، يلطسها لطسا ببسـطة كفه ، يلمس ويمسك ، وكلما أرادت آن تفر قبض على يدها يستبقيها • بذلك وقعت فى الناصية ، انبهرت ، وبهرت أنفاسها ، واقتم اللون الوردى فى وجناتها • ثم صعدت لزبوناتها من النساء الموسات جلست معهن شاردة ، لا تستطيع أن تفتيهن فى أمرهن شيئا •

وفى ثانى يوم وجدته ينتظرها ، يزنقها ، تحاول أن تفلت بكومة لحمها لكنها لا يطاوعها جسمها ، أن

تشخر فيه ، تصغره وتلزمه الأدب ، انفرطت منهـــا عدتها الاسكندرانية · أن تصرخ فيه ، فخانها صوتها · وحاولت أن تفر ، وكانت سبقت ارتبكت فى شباكه · قالت له : « ماذا تريد مني يا ولد ؟ » ·

قال لها : « أريدك أنت ·· ! أريدك كلك ·· ! آكلك ·· ! » صعدت الى مسكنها وهى ترتجف ارتجافا ·

حتى المومســات جئن يتضــاحكن · وقعت عينها فيهن ، وتحت الطلاء بأساء المهنة · قالت فى نفسها ، انهن عندهن الرجال من كل نوع ، ثم يأتيننى ينشدن حظا عند الوحيدة · قالت لهن : « بالاذن يا اخواتى ، أروح لزيارة أمى ؟! » فخرجن كلهن ، وهى نزلت الى الطابق الأسفل قالت للطالب وهى تدخل غرفته وتغلق الباب وراءها :. « ياولد ·! » وفى صوتها كل الهزيمة، قبض على ذراعيها وضمها الى صدره ولف ذراعيه على ظهرها وقبلها فى شفتيها فخرت منهارة على السرير ، وهو واقف يغالب تقززه من سوء طعم ريقها وارتخاء شفتيهــا · وقــالت لــه دائخــة : « لا ·· لا ·· ليس هنا ·· سيكون ذلك عندى ، قبلها تقسم على المصحف ألا تفضحنى ·· ؟! » تأمل الكومة الهرمة على السرير· رد عليها كالمخدر : « نعم ·· آجيك ·· وأحلف · ! »

وصعدت السيدة صاحبة النزل الى مسكنها ·

استحمت · صففت شعرها ·و صبغت خدودها ·

ولبست قميص نـوم حريرى أحمـر كان عنـدها من زمان ، نظرت فى المرآة • ارتجفت • قامت تنشـد المصحف الشريف ، وجـدته ، فـردته على حجرهـا ، لا تعرف القراءة ، أغلقته ، نظرت فى المرآة ففزعت • هتفت : « الولد لم يأت •• ! » تقطع الشقة بخطوات متسرعة ملهوجة ثقيلة والمصحف تحت ذراعها اليمين • فتحت باب شقتها وانطلقت تعـدو الدرجات النـازلة للغرف • تصـفق باب الـولد بيـدها اليسرى ولا من مجيب • تركت المصحف يسقط لتصفق الباب بيديها • تصفق • وتصفق ثم نطحت الباب برأسها ، وصرخت، وسقطت ، والدم ينبجس من جبينها •

● واحد من أهل الله :

ذات عصر انحبست الرياح البحرية ، وزمتت الدنيا، وتكدر ضوء النهار فيما بعد الظهر بمسحة من الغبار فتلونت الأشياء ، وتجهم أبى ، وأنا كنت جالسا جنب الأب على مصطبة دارنا وقدامنا ساحة تلعب فيها النسمات لعبة أسيفة ، تدوم وما ترتفع قدر شبر حتى تهمد ، أتأملها ، وأرمق أبى ، وأرى جهامته ، وحبات مسبحته تتساقط من بين أصابعه فتصبك الواحدة الحبة الأخرى صكة كهربائية ٠

وجاء الرجل ، نراه يدرج نحونا ، وأنا فرحت به جدا ، طرت ليمه بأشواقى ، فرشت تحت أقدامه سجاجيد لهفتى وطيبى به ، وأبى يبتسم ، نظره متعلق بالرجل ورأسه تميل ميلا ، ترنم نغمات رضاه ، حتى

وقف الرجل قدامه فتصافحا وقبلا الكتفين ، وجلس متضائلا فائضا أدبا • وجئت بالشاى ، تناول كوبه محبورا وربت على ظهرى ، وأخرج من جيبه حلوى فنفحنى بها ، جلست أتلذذ بالحلو وقد صار الوقت حلوا ، انطلقت النسمات العصرية ، وراق ، هل يأتى هذا الرجل من الجهة البحرية ، مخازن الريح تبرد من حر النهار ؟ أم يأتى من رطم حبات المسبحة فينعم به وجه أبى ؟ جاء الناس فرحين بالرجل يسلمون ويجلسون حتى ازدحمت المصطبة ففرشت الباحة حصرا وجلسوا ينصتون والرجل يحكي عن حبه لشيخه ، يكنس الروث من تحت بغلته وهو لابس زيه الرسمي • حتى كان ، وترك الخدمة فى القوات المسلحة وتكبل بالحديد ، يسمعون صلصلة حديده ، يخفيه تحت ثيابه ، وفى كل مرة عند هذا الحد من الحكاية يتنزل من السماء ايمان على قلوب الناس ويصلون على النبى ، وتضاء الأنوار •

صلوا المغرب جماعة فى هذا المطرح ، وفرحوا بانقضاء الفرض • ضحكوا ، وجاء الطعام ، خرجت الصوانى من كل دار صينية ، واجتمعوا على العشاء ، ضحكوا فرحانين ،حتى انهم حين وقفوا لصلاة العشوية المتأخرة كان فى أفواههم من بقايا ضحكهم • لكنهم لما جلسوا لقراءة الدلائل تجهموا والرجل معهم وجشت

الأصوات ، وصلت النغمات الغلاظ للأوج مما يبوح به القلب ·

ولما وقفوا للذكر ارتعبت ، لبدت فى جنب أبى فى مجلسه على المصطبة وكبشت فى لحم فخذه · والذاكرون يقفون فى صفين ، جدعان فتيان ، وعلى رأس الصفين مداحة سوداء بيضاء الأسنان ، وفى يدها دفها وهى امرأة شامخة ، وفيما بين الصفين يقف الرجل ناكس الرأس متحاضن اليدين ، ولما يبدأ الذكر ويصل الى أوجه احترت وتعبت فيما أريد أن أعرف ، أهى المرأة تقود الرجل وترقصه ، أم هو الذى يمسك زمامها ، وهى على صهوتها تتلعب لفارسها ؟ تعبت وأبى ساكت يقطر حبات مسبحته حبة وراء الأخرى ·

الذكر بلغ أوجه ، وطارت التقية من على رأس لرجل ، وثار شعره خصلات طائرة مع حركته ، وجهه اقتم ، وفمه يفيض رغاء ، وذراعاه طائران ، وقدماه يدقان الأرض ، يخضخضان جسده فى قذفات متتابعة - خلع جلبابه ، وبان حديده ، وسلاسل تلفه كله ، تشخلل وتصلصل وتصطك مع رقصه الجنونى الرائع ·

المرأة تميل بالدف مع الآه ، وتمتدل مع الآه الأخرى ، وتغمض عينيها ، وتضحك كالنهار ، وترجع كتفيها اثنين اثنين ، وترفع رأسها الى الخلف مع الآه

الثالثة الحرى . والدق تباعا بيدها السوداء الهائلة على قلب الدف . هل أدرى أيصل تيارها الرجل ، ام يصلها الرجل بتياره ؟ وأبى صامت والشباب الذاكرون جنون مكتوم الدق ، صرخ الرجل صرخة ممطوطة طـويلة ، وهو طويل ، يرفع يديه لأعلى مفروشة الأصابع . المرأة ترجع بالدف لحنا موصول المقاطع والبحـات كظت ، والعيال الذاكرون يجاوبونها بالدق ، وخشيش الصدور . اذ اتخذ الرجل من حديده جنزيرا طويلا ، ثم يديره على رؤوس الناس دورانا حاكما باهـرا ، والذكـر دائب مسقوف بالحديد ، لحظات أبدية .

وبدأت أرتجف ، أزن كما يكون اعوالا ، ضـمنى أبى اليه ، وأسنانى تصطك ، حتى سقط الرجل وهـو يهتف بألا اله الا الله .. وبهذا انتهى الذكر وأقبـل الناس على الرجـل يلثمون يديه ورجليـه ويلتمسـون البركة من حديده . وأبى هدأ من روعى وقال لى :

ـ انه واحد من أهل الله .. !

● انتصار :

أخيرا جاء الماء ورويت الأرض التي حصد عنها قمحها ، وتلك التي بقى بها زرعها المستحصد ، بما عجز أصحابها عن سداد الايجار • هكذا طفحت الشقوق، وامتلأت الحقول بالمياه ، وغمرت فخرجت منها أسراب هائلة من الفيران ، غيطانية بنية صفراء الظهور، تجرى ، ويخبط بعضها في بعض ، يقفز بعضها فوق بعض ، فرار مذعور أعدى الجراد فطارت جماعاته فوق سيل الفيران المنحدر ، والفراشات ، والعناكب تتعلق بخيوطها ، تتسلق الوهم صعدا ، والعصافير تزقزق وتضرب بجناحها هاربة • ومالك الحزين ينشد مكانا رائعا يستمتع فيه بالماء ، تزحم الفيران المكان بالجنون، ومالك الحزين يعلو ليسمح له ليعبر ، ثم ينظر أين يحط •

سحب من فيران غيطانية ، سمينة بما قرضت من سنابل القمح طوال الموسم، ينطلقون لا يلوون على شيء ، من الحقول الى الأجران ، ازدحمت بها الأرض ، تزلزلها بركضها الصموت وتسد الأفق بسحب شفيفة ، فانتشر الفزع • من ناحية القرية خرج العيال ، سحابة كثيفة، عيال حفاة ، جلاليب على العرى ، سيقانهم ملتوية رفيعة ، وكروشهم منتفخة ، والوجوه ، والعيون تقرحت ، والشعر أشعث ، هجموا ، قابلوا هجمة الفيران • كلما دفقت المياه في الارض بها من جديد ، وجاء العيال على الصياح ، تخالط الجمعان ، صرخات الفرح وصرخات الفزع حتى كف الجرى وأوقف الفرار وهمد العفار ، وما بقى فى القرية طفل ، الا وقد حاز فأرين أو ثلاثة أو أربعة •

والولد حويط •• ! اصطنع فتلات ، لكل فأر من فيرانه الأربعة فتلة • ربط الفتلة على الساق ربطا محكما وخلى لها الفتل طويلا ، أرخاه ومشى يمسك الأربعة حبال في يده مسكا وثيقا ، وعند آخر الحبال تترقص وتتلعب ، يوقع لها بالارخاء والشد . تنوى أن تفر فيرغمها الرباط ، وتستمر اللعبة ، رقصة رهيبة ، والطفل سعيد بشغبه وانتصاره • تمادى ، فدق وتدا فى الأرض ، وأحكم فيه ربط الفتلات الأربع ، كل واحدة تنتهي بواحد من فيرانه • تركها تجرى والاحبال

ترغمها على الجرى فى دائرة مركزها الوتد ، والولد يجرى يطارد الفيران على محيط الدائرة ، يصفق ويذكر ويتراقص ، والجرى دائب والدائرة لا تعرف الاكتمال أبدا . حتى تعب الصغير ، جلس وحينواناته واقفة جامدة ينبض فى كروشها النفس .

قال الولد لنفسه وفى يده الأحبال الأربعة ، ان هذه الا أبقارنا ، لنعلق فى رقبة الواحد منها حجرا ، ونوثقه توثيقا شديدا ، وأطلقها تسير والأحبال معه ، وان أبت السير جذبها ، تعلو الساق المربوطة وتمشى الفيران ينقلون ثلاثا ويجيدون الحجارة ، الولد يصيح بها صيحاته بالبقر ويضربها بالعصا ، ويسرف فى الضرب حتى ماتت ، كل واحد منها داخ وانتفض وقاء دما .

هكذا ماتت فيرانه الأربعة ، فانطلق ينظر فى أمر الأطفال . أرض الجرن مغطاة بجثث الفيران ، يركلها، بعض الصغار فى أيديهم بعض من فيران يلهون بها ، لقد ملها . لم يطل النظر ولم يتوقف بهم ، مضى ، الحقول ملئت بالماء حتى فاض ، اندلق فى الجرن صانعا بركة ، وقف الصغار على الحافة يدورون بها ويقذفون الماء بالحجارة . لحق بهم . البركة مملوءة فئرانا تقوم تخبطها قذائف الطوب تصيبها فتغوص ، أو تطفو لتنصب القذائف عليها مرة أخرى . والشواطىء

محروسة ، كل فرار مدرك ، يضرب الفيران فترجع الى الماء • صاح الولد أن آه لو كنت أطلقت بقراتى هنا •• وأخذ من الطوب يقذف الى أن غرقت الحيـوانات فى الماء العكر •

والوقت صار الى اصـفرار الشـمس ، والمغـرب وشيك • آب العيال • يمشون فى جماعات ، يضحكون ، ويلعبون شقاوة ، لكنهم المتعبون • يحكون عما كان من أمر الفئران •

آه ياولاد •• آآ

● الخوف :

كنت مخمورا أحــاول جهــدى أن أستجمع وعيي • سائق التاكسى رصين الكتفين ، والعربة تمرق عـــلى الأسفلت المبلول المضاء بمصابيح الطريق ، يبدو أننى مريض بالكبد • كمية الخمر الرخيصة ، معدتي تثقل على وعيي مثل كلكل الجمل ، لكننى يقظ وعارف ، ومن طرف خفى أرقب تتابع الأرقام فى عداد التاكسى •

هذا السائق كتفاه تتساوقان فى حــركة رتيبــة أكيدة • بعد لحظات سأقول له :

ـ هنا •• !

عندئذ يقف وأعطيه حسابه • سآمره بالوقوف فى صوت خفيض ، لكنــه قوى وآمــر حتي لا يلحظ أننى سكران •

عيناى على عداد السرعة .. تسعون كيلومترا فى الساعة . ياربى . العربة تسلبنى بهذا المروق الخارق على الأسفلت الناعم . أطرافى باردة بخوف مبهم :

ـ هنا .. على اليمين .. !

بليونة وقفت العربة . تفتحت عين خضراء فى لوحة العدادات . ضغطة هينة على مقبض الباب انفتح، المعدن صقيل بارد . العربة جديدة متحفزة .

بعينين ساجيتين متعاليتين ألقيت نظرة على العداد، أنا أعرف مافيه سلفا ، لكننى حريص على أن أبدو طبيعيا . بأناة خلعت قفازى ودسست يدى فى جيب معطفى وأخرجت ورقة ذات خمسة جنيهات . عليه أن يرد لى ثلاثة جنيهات .

بنفس النظرات الساجية المتعالية تأملت كفه القابضة على ورقة النقود ووجهه الذى تنعكس عليه أضواء لوحة العدادات . سألنى وأسنانه تبرق بيضاء لامعة :

ـ معك جنيهين !

ـ لا .. !

ثم ترقرق فى قلبى الأسى فأردفت :

ـ آسف .. !

ثم قلت متوسلا :

ـ لا يهم ٠٠ !

لكنه آزاح رجائى بقبضته القوية ، ثم جذب محول السرعة وقفز بالعربة تاركا فى أذنى أمرا باترا :

ـ انتظرنى هنا حتى أعود لك بالباقى ٠٠ !

تسمرت فى مكانى مرتبكا وخائفا قليلا ٠ تتعلق عيناى بالعربة التى تبتعد مسرعة ، وجدتنى وحيدا ٠ فى مواجهتى على الضفة الأخرى من الشارع صف طويل من أبواب الدكاكين عمياء صامتة واقفة على حافة امتداد أسفلتى لا متناه ، مضاء بمصابيح الطريق ٠

صمت مريب ٠ الوحشة تزحف على من جميع الاتجاهات ، وأنا فى بؤرة مخيفة ٠ انطلقت مسرعا الى بيتى ٠ حذائى يضرب حصاء الطريق فى ارتباك ولهفة ٠ أسرع ، أزيد سرعتى ، أفر هاربا ٠ دفعت الباب الحديدى فصر صريرا عاليا ككلب دست على ذيله ٠ صعدت الدرجات القليلة قافزا أتلفت ورائى كالمطارد ٠

فجأة ملأ سمعى ضجيج محرك السيارة ٠ لقد عاد ، بدأ يطلق نفيره بقوة ٠ يدى تبحث عن ثقب المفتاح ، النفير يلح وأنا أبحث عن الثقب فى لهفة ٠ النفير يدوى رهيبا ٠ المفتاح يصطك بكل مكان ماعدا ثقب المفتاح ٠

بدأ السائق ينادى ، يزأر كحيوان مفترس :

ــ يا أستاذ ٠٠ لك ثلاثة جنيهات باقية ٠٠ !

صفقت الباب ورائى بقوة ، فى ثوان كنت قد خلعت ملابسى ، وطوحت بها ، وقفزت الى سريرى ، وأحكمت الغطاء حولى ، ومازال السائق يزأر :

ــ يا أستاذ ٠٠ لك ثلاثة جنيهات باقية ٠٠ !

تشبثت بالغطاء وأنا أرتعد ٠ أحاول أن أهوى الى قاع اللاوعى لأنجو ٠

هدر صوت العربة راحلا ٠ أحسست بالخـلاص ٠ لابد أن الشارع الآن ساكن تماما ٠ عيناى مغمضتان ، الحذر يضغط على وعيى يدوسنى بأقدام ثقـال ٠ ذلك الامتداد الأسفلتى المضاء بمصابيح الطريق ، فتحـات أبواب الدكاكين امتداد شاسع ، يوغل فى البعد حتى لأحس بالدوار ، مستطيلات واقفة متتابعة فيها مسوخ شائهة ٠ ناس ، أو هى جثث فئران هائلة هائلة متآكلة ٠ ظلام تام ما عدا هذا هذا المستطيلات المضاءة التى تقف فيها هذه الأشكال المخيفة ٠ فى داخلى تسح دموع دافقة ٠

● حالات الجسد :

ركب عربة عسكرية يقودها جندى ، واثنان أخران يجلسان فى المقعد الخلفى ، صامتين ملتبسى الوجهين بمشاعر غامضة ، أمامه تسير ناقلة وقود ، هو فى حراستها • يعرف أن طائرات العدو تغير على طرق النقل التى تسير عليها قوافل الامداد ، ويعرف أن الفترة التى تمتد بين اغارتين عميقة الصمت وشديدة الاملال ، تفصل بين بأساء الحرب •

وهو بذلك يكره العدو حين يهجم وحين يتركه ينتظر الهجوم ، لكن أى نوع من الكراهية تملكه •• ! ليست أبدا هى التى سودت قلبه يافعا وشابا فى قريته البعيدة عن مرامى النيران ، الآن يعرف جيش الأعداء ، يعرف أفراده ، يرى وجوههم ، الأيدى تحرك آلات الهلاك ، الأجساد الغضة تردى بالرصاص وتطعن بحراب

البنادق ، المعرفة اذن حميمــة ، كيف يقتلهــم أيضا .
ويخاف الى الرعب أن يقتلوه •

عربته العسكرية تسير خلف ناقلة الوقود ، تئز دواليب العربات في جوف الصمت ، ثم اذن ينقسم من أزيز العربات صفير طائرة مغيرة ، تنبــه جســــده ، اليقظة تسرى في عضله أمشاجا أمشاجا على قد الصفير المحلق • التفت الى جنــوده الثلاثة ، يسمعــون وتقتم الوجوه وتزم الشـــفاة وتضيق العيــون ، أمامه تدب الناقلة • هــل تأرق ســيرها ؟ والطــريق آت من عمق سحيق ، مرسوم مجراه بالأســفلت ، وحــواليه فراغ مزحوم بتلال الرمل • والصفير يجيء من خلف السحب، يرطم القمم الرملية ، ويتردد مضــطرب الاصــداء ، تصلب جسده • انتبه ، زفر ، تحكم في المشــهد عــلى جانبيه وأمامه ، يأتى من خلف النــاقلة ، يوغلان في الأفق بطيئا • ينتفخ قلبــه والمــخ بالصفير من تقبى الأذنين اللذين اتسعا بآلة الخــرم المــدومة ، انقضت الطائرة ، وقفز الجنود ولحق بهم ، انبطحوا •

دفن وجهه في الأرض خلف نبتة جعضيض ملتفة • أنفاسه تجذب له ريحها وذرات من الرمل الذى يريح عليه جده • تقبب رأسه ، وعلت قبتها ، حتى لا تصيبها رصــاصات الطائــرة التي تحلــق وتهبط في دورات متتالية • وقشرة رأسه تعلو كل مرة لتستقبل الطلقات،

ترن في التجويف في كل جسده . لكن قدميه أوغلا في البعد ، سرحا في الأفق من وراء ظهره ، فلا طاقة له على أن يحركهما ، ولا طاقة له على يديه أن يمدهما يستر بهما قمة رأسه من القذائف ، والقذائف تنتشر ، تصيب كل خلية من خلاياه ، يحس بها ، يحس الوخز في كل واحدة على حدة . وسط الألم ، وسط كل هذه الضجة كان يحلم بما حصل .

هجوم الطائرة كابوس يعاني منه الجسم ، يرقبه في صفيرها خلف السحب . يشتد الصفير .

انقضت ، صرخ في جنوده ، ولحق بهم ، انبطح على الأرض وفي أذنية الضجيج ، وفي عينيه خيال الناقلة وجسمها مرشوق بالقذائف ، تميل من على الطريق وقد تخلى عنها سائقها وزملاؤه . تمضي مترنحة ، جراحها التهبت نارا ، حتى رست على تل من الرمال . صارت كتلة لهابة ، متى تنفجر .. ؟

والطائرة تذهب وتجيء ، وفي كل مرة تفرش الأرض بوابل من الجحيم ، ثم انكشحت ، اختفت ، غاب صفيرها . ثم يسفر وجه الأرض عن تشوهاته ، عن النار والدم ، عن البقايا من الحديد والأجساد ، ثم يسفر وجه الوقت عن الانتظار الممل للغارة المقبلة .

ثم قام ، وقام من حوله من بقى من جنوده ، تأمل حوله ، مطروحون على الأرض قتلى ومجروحون يتأوهون من الألم • انها تلك حالات الجسد ، مقتول أو مجروح أو سليم ، يعيش يرقب الضرب •

• ترديد ألماني :

اليوم من أيام مهرجان الفيلم في برلين الغربية . الميدان مضاء بالألوان الباهرة ، لافتات مكتوبة بحروف براقة ، ضخمة ، كابسة على أرواح الخلق ، ينكسون رءوسهم ويمضون في اتجاه دار العرض الرئيسية . واجهتها مزينة بصور الممثلين بحجومهم الطبيعية ، تنعقد فيما بينهم مشاهد مثيرة ، ويكادون يتكلمون بالمقولات الرنانة ، لكن أحدا لا يسمع منهم ، وعلى الأرض تشغى الدنيا بالناس .

ضيوف العروض من الناس الألمان ، كل صحب زوجته ، أو صحب صاحبته ليطرفها بفيلم من أفلام المهرجان ، يقفون في صفوف طويلة ، ينتظرون دورهم للحصول على تذكرة الدخول . يقفون صابرين وبعضهم

يتسكع قدام لوحات عرض الصور ، أو يستمتعون بقرطاس من الايس كريم ، كل له شأن فى الاستمتاع بمسائه ، لكن كلهم بساموں مهذبون ، وناس صناعة الفيلم ، فاتنون فى ملابسهم العجيبة ، يكركمون بالضحكات ، ففيهم كثير من الأجانب ، وعلى الأخص سود وسمر وصفر حتى شابت البيدر الألمانى بحبات سمراء غاليه • ويلاحقهم جيش من رجال الاعلام ، يحملون آلات التصوير وكشافات الضوء وساعات أجهزة التسجيل ، يقتربون بحذر وكثير من الحشمة من رجال السينما ويسألونهم • هكذا يدور المهرجان ـ وكثير من التفاصيل تسيت ـ على أشده بضجته وزياطه ، اذ انشق الميدان الغارق فى الضوء عن رجل أسود هائج ، شرب حتى ما عاد يميز الأحوال والتزام الأدب • دار يبرجس هنا وهناك ، يفيض الرغاء من فمه ، يقبض يديه ويرفعهما ، ويشتم ويسب ، ويصدم الناس بكتفيه ، بظهره ، ويدوس عليهم اذا مضى متقدما •

الناس الألمان يؤمنون أشد الايمان بتقسيم العمل ، فليس من شأن أى منهم أن يوقف الرجل الاسود ، انما يخشون أن يصدمهم ، يعكر مساءهم ، يتحاذرون يكتمون شتائمهم ضد الأجانب ، ويصبرون ، وهم يتلفتون ينشدون رجل الشرطة ، فلا يأتى أبدا ، الاسود يصرخ ويعلن عن هويته :

« انه مناضل من بلدة كذا ، وكم ضرب الاوربيين بالرصاص وكم عمل كذا وكذا ٠٠ ! »

ثم يصرخ هنا وهناك ٠

الناس جاءوا الليلة هنا بقصد الاحتفال ٠ فهـذا المكان ليس مهوى شباب النازى ، الذين يمشون جماعات متحزبين متعصبين وكيف يعرفهم الناس ؟ بحـلاقة رءوسهم ، وتكشيرة عميقة على وجوههم ، وطول قاماتهم، ومشيتهم العسكرية ! ليس هذا المساء ، ولا هذا المكان مهوى لهم ، الا واحد يمضى صارما بين الجمع تتقدمه جهامته ٠ فاذا رآه الاسود تحفز ، وهو حدج الاسـود بنظرة يتطاير منها الشرر ، يريد أن يلزمه الأدب ٠ فاذا رأى الاسود قصده أقبل عليه وصرخ فيه وانقض عليه ينشب فيه أظافره ويضربه فى كل مكان من جسمه بيديه ورجليه ٠

اذ ذاك انفكت عزائم النازى وطار جريا من أمام الأسود ، وطار الأسـود وراءه كنسر ، حتى اتجاه الى ما تحت صـور العـرض لدار سـينما خاصة بالأفلام العارية ، صور العرض لمرأة متهتكة ، تأتى بحـركات مبتذلة ، والولد النازى متكوم عند أقدامها ، والاسود يركله ٠ ثم نظر للمرأة ، وضحك لها وهو يرفع يديه مقبوضتين ، ويصرخ فيها بكل قوة ، والمرأة لا تبالى به٠

رست عربة الشرطة جنب الرجل الاسود ونزل منها جندى برلينى ، هادئا راسخا يعرف عمله ، وعلى بعد خطوات منه وقف زميله ويده على مسدسه • نصب الشرطى حول الاسود شبكات نظراته ، أوقعه كحيوان فى فخ صياد • ارتعب الاسود ، والشرطى زاد تمكنه من فنه • طلب منه جوازه ، أخرجه وهو يبربر بلغته القومية ، والشرطى لا يهتم بذلك ، وضع الجواز فى جيبه وسأله ان كان ضرب هذا الرجل ؟ وبين الكلمة والكلمة يهمس فى جهاز الارسال المعلق فى جنبه • قال له الاسود انه هو الذى بدأ بالعدوان ! أمره الشرطى بركوب العربة ، وهو محاط بشبكة نظارته حتى أحكمت عليه ، صحبته الى داخل العربة ، فى أثناء ذلك جاءت عربة الاسعاف حملت النازى • ومضت العربتان وئيدا بلا صوت ، وعاد المهرجان يصل الى أوجه من غير ازعاج بعد •

● الذبح .. والذبح أيضا :

هو يكبرني بعدة سنين ، لكن دماثته وطيبته تقربني منه ، هو قريبي ، وله عندي معزة خاصة . آه على الأيام الجميلة التي انصرمت وعددتها رجوعا الى الماضي البعيد ، أيام كنا نسكن في عمق الحارة ، وكانت الدنيا تعفينا من السؤال ومن همومها ، وتفرد لنا كفوف الراحة نلعب حتى نغلب . وبعد اللعب كنا نجلس نتسامر . وكان يخصني بأسراره ، ما يشغل فؤاده ويثقل على احتماله ، وأنا أسمع مبهورا ، وأعقد في قلبي صرة على ما سمعته منه لا أفرط فيه أبدا .

كان واحدا من عدد كبير من الاخوة والاخوات ، أسرة أضربها الفقر ، وضرب بالصفرة في جباه الاخوة والأخوات وكسر العيون بالذلة ، والابتسام

بالخجل الحيي ، والتقلق ازاء ما هــو مقســوم ، كلهــم يسكنون فى بلاقع دار مكنوســة من كل آثــار الخــير والعمار • والرجال فى وسط الدار ينظــرون ، كل واحد منهم استأثر بغــرفة له ولامرأته وعيــاله ، أما النساء الأخوات فقد ارتحلن عن المطــرح بالــزواج ، وملأته النسوة الغريبات نسلا وصخبا وزياطا وكيدا ، كل تكيد حتى يتسع لها الشبر الذى يخصها من الدار، ويتآمرن ويتشاتمن ويسرقن ، والرجــال صــابرون ، كلهم يكتمون الغيظ ، طيبون ويضحكون • أما هو فانه يدور حائرا مثل ظل منكسر ، يتقلب بتقلب الضوء • فاذا ما جن الليل صعد الى السطح لينام ليالى الصيف ، يدني جلبابه ويثنى ذراعه وسادة لرأسه ، وفى الشتاء ينام فى وسط الدار مدفونا فى كومة التبن ، ويأتى الى فى أماسينا يضحك ، يحكى لى الحكايات ، وأضحك ، لكن مرارته تعدينى ، وينتهى وقلبى مفعم بالمر من طعم حديثه •

ثم كانت خطبت له فتاة عروســا ، جاء لى يخبرها يحكى ، تجاسرت أسأله عن سر نكده من حظه بالزواج: قلت له :

ــ ألست سعيدا بالفتاة زوجة لك ؟ ماذا بها ؟ قل لى يا أخى ونورنى •• !

قال لى :

ـ ان على الواحد اذا كبر ٠٠ أن يتزوج ، ما للرجل في ذلك بد ٠٠ !

سمعت مقاله وشدهت والتبس على الأمر . وتعست للقران ما فيه مسرة لقلب ، وآخيرا ضحكت على ضحك قريبى ، أصبحت الدنيا تسـألنى وتعنف فى سـؤالى ، وأترحل في الأرض وراء أجـوبة المسـائل ٠ آه لأيام اليفاعة ، وارخائها الحبل لى فتطيب لى الدنيا والعيش، كل آن يلذ لى أن آرجـع لبلدى وحسـان الذكريات ، وأزور قريبى ٠ وفى كل مرة وجدته جالسا قدام داره يلاحظ بضعة من المعيز ٠ وأنا أحب هذا الحيوان ، انه نظيف وأنيق وألوف ٠ قال لى قريبى :

ـ اننى أتركهم يدرجون فـىالحارة ، يرعون فى البقايا ، يسمنون ، وفى ذلك ييسر الله الرزق ٠٠ !

ارتجفت بما تخيلتـه من حسـان المعيز معلقـات بالحبال يسلخن وتبقر البطـون عن الأحشـاء ٠ وأنا شارد خايلنى شبح امرأته ، صفراء ذابلة تحمـل الى صدرها وليدها يبكى علته ، يزن عـلى ايقاع تربيت الأم وترجيع كلمات بكائية ٠

وما عدت مضطرا لخوض حارتنـا حتى آخـرها تشدانا لبيت قريبى ، انه ابتنى على رأس الحارة ، قام

من فوره يستقبلني ، ألقى من يده بسكين الجزارة ، ولحم عظيم معلق بالحبل ، وجلبابه غارق فى بقع الدم، حياني ، وخلفه من ورائه في وسط داره امرأته الجديدة ، زوجة له فحلة مشغولة بأمور المعاش ، وهو يشد على يدى ويضحك ، وأنا لم أعد أضحك على ضحكه • صمت كنت موشكا أن أقول له :

ـ يا قريبى •• كف عن الذبح •• كف عن الذبح يا أخى •• !

لكن الدنيا ما تركت له خيارا •

ولما خرجت من حارتنا قاصدا السفر وجدت قريبى وفى يده حبل ومعه اثنان من مساعديه يحيطون ببهيمة، شابة فارهة من الجاموس ، يدورون بها ، وهى حذرة فطنة تعرف قصدهم • عيناها واسعتان بالرعب ، وعيون الرجال ضيقة بالشر • تدلى البهيمة رأسها ، وتشرع قرنيها متحفزة ، وتدور حول نفسها بدورانهم حولها • اذ انقض قريبى على الجاموسة انقضاض النمر ، يشبك الحبل فى ساقيها ، وجذبه فألقاها على جنبها ، وأسرع المساعدان يركبان الشابة ، فاذا بها تلقى بالرجلين ، وتنهض تخلص سيقانها من الحبل وتستقيم واقفة ، حية فى مواجهة الموت ، لم أر مثيلا للهاثها والرغاء والرعب فى عينيها ، وقرناها مشرعان حذر الهجوم •

وهاجموا ، كبل قريبى أرجل الذبيحة ، وركب الرجلان على رأسها وبرقت السكين • لمعت • مضت مسرعة ملهوفة فى لحم الرقبة وتفجر الدم ، فاض نهره • أمشى طريقى الى المحطة ، أمر بالناس والدور، تخايلنى نوافير حمراء تصبغ كل شىء • تذكرت أننى لم أقرىء قريبى سلام المسافرين ، اننى لم يكن لى فى ذلك خيار •

مطر ... !

انه الشتاء ! غلقت من دونه الباب والنوافذ ، لكن المطر ينهمر فى الخارج ، والبيت معتم رطب عطن . تنظر حواليها وتنصت خائفة . عليها اليوم أن تبقى هنا وحيدة فى حبس الغرف . اليوم الأحد عطلتها المدرسية الأسبوعية ، أما أبواها فقد ذهبا لعملهما . لا بأس ! ينبغي على الواحد أن يجرب الوحدة أحيانا ، وأن يألف معايشة الخوف وسلطان الصمت .

قامت من على الأريكة فى الردهة تاركة وثارتها ودفء مطرحها لتخوض البرودة القليلة الضوء . تمشى خطى حذرة مترددة ، كأنما تخشى مجاهيل متربصة ، صوت المطر والريح متواصل ملحاح ، تقطعه انفجارات فجائية راعدة مكتومة ، زمجرة عناصر اليوم الشتوى

فى الخارج تدق بقبضات هائلة على الجدران ، توشك أن تطبق على شرنقة وجودها بالبرد والبلولة .

تنقل خطاها متلفتة ، ماضية الى غرفة نوم أبويها ، يقابلها الصمت الرطب ، ورائحة النوم مازالت ، شيء يصحو في غرفتهما اذا غاب الأبوان . ها هو هنا الآن. يتسلل الى أعماقها من مسام كيانها يملأها تأثما وشغفا ، يأخذها الى حضنه الناعم الوثير ، ويهمس فى رقبتها همسا مدغدغا دافيء الأنفاس ، جلست على حافة السرير مستسلمة . أغمضت عينيها على رسمى الشباكين فى الحائطين ، ضوء فضى يتسلسل من فرج المصاريع المحكمة الاغلاق ، يتشعشع فى حرير الألحفة والحشايا ورسوم البسط ، وصور الحائط .

صوت الشتاء مدمدم ، يضرب فى قلبها ، تبقى حبيسة الغمض ، تحب غرفة نوم أبويها ، غابا عنها فأصبحت لها وحدها ، وسرها القليل الضوء الثقيل الريح الحريرى الوثير المهول بالصور والرسوم وجسوم السرير ومائدة الزينة والخزانة ، فتحت عينيها على مرآة خزانة الملابس قدامها . وجهها شاحب وسيم أثار فيها الحزن ، أحبت نفسها حبا حميما حتى ترقرق الدمع فى مقلتيها .

جسدا الوالدين بصما مكانهما متباعدين يفصلهما

نتوء مستطيل على حاشية السرير ، أى صـمت عميق يعمر المسافة الفاصلة ، من خلف ذلك كان صوت الأب يأتى غاضبا منذرا لكن له رجع باك ، وأم لها جـواب عنيد متشبث مقهور ، ترفـع البنت عينيهـا الى مرآة الدولاب ، فى الضوء القليل تلمح الظلال والحمرة ، حول عينى أمها وفى عينيها أيضا •

عناصر اليوم الشتوى تنشر فى جسدها الخوف ، وفى قلبها اللهاث• أهى العناصر رهينة باليوم الشتوى، أم لها فى المساء ، فى ردهـة بيتهم ، رجـع صـارخ مكتئب ؟

الأب تحلق عيناه حول الأم ، مليئتان بالقهر والمذلة، وجهه محتقن مزرق ، والأم محلقة حـول وجه العـم ، شفتاها حلوتان عقيقيتان ترتجفان ، وفى عينيها غسق، ويداها توشكان أن تمتدا على وجه العم ، تأخذه بينهما ، وتضغط على وجهه الشاب فى قوس يديها السـمراوين النعماوين وفى آخر المساء تذهب البنت الى فراشـها ومعها أحلام جميلة •

وابتسمت لنفسها فى مرآة خزانة الثياب، والدمعتان تترقرقان فى عينيها مثل لؤلؤتين صغيرتين ، والمطـر ينهمر على مصراعى النافذة من الخـارج حتى يتغبش الزجاج •

أمهـا حكت لهـا أن سائق الحافلة انحرف بهـا من شارع (وادى النيل) ، وصعد مع شارع جانبي (الى ميت عقبة) ، الى حيث باب بيتهم . والركاب مذهولون طائطون يصرخون يسألون ماذا غير من مسار الحافلة ؟ وأنا واقفة بجوار مكانه خلف عجلة السواقة ، مندهشة ، أتنفس بقوة ، قلبي يخفق ، مزهوة بساعديه الهائلين ، يدير بهما العجلة ، ويطير بالحافلة كأنها مرهونة بقوته الخارقة ، ووجهه مزده باللون الرائع • حتى نزلت على اندهاش رواد المقهى وضحكاتهم ، التفت له ، فى عيناى رجـاء وشفتـاى ترتعشان ، لو يحملنى الى شقتى ، الى زفافى •

قلت له :

ـ انك لن تقود حافلة بعد !

والأصوات فى أذناى ، زياط الراكبين وضحكات رواد المقهى • ارتعدت وأنا أقول له :

ـ انك لن تقود حافلة بعد :

ثم اشترت له الأم عربة صغيرة (عربة أجرة) يدور بها فى المدينة كل يوم ، وفى المساء يأتى لأمها بالحساب، تصنع الأم الشاى ، والأب يرفض كوبه كارها حقودا والبنت الصغيرة تنطوى على نفسها فى ركنها خائفة •

ولكنه يأتى حينما تكون البنت وأمها وحدهما فى

الشقة · ترتجف البنت من تذكرها · تنصت لصوت المطر ، لم يعد ينهمر سياله على مصراعي النافذة ، فقط قطرات متباعدة حزينة ·

أمها تفرح بالعم متحررة معه متبرجة مزدانة ، وهو مرح صخاب ، والبنت تضحك لهما ·· والآن تصل فرحتهما الى الأوج · حينئذ ينبغي على أن أذهب لأشترى له علبة سجائر ، سيحدث هذا حالا أو بعد فترة من الوقت ، انني أنتظر دورى ، ثم تنتعل حذاءها · أمها تنظر في أعقابها متعذبة العينين ، والبنت تبتسم لأمها مشجعة ، وخرجت من شارعهم الى ظهر المدينة ·

المدينة حلوة · الدكاكين حافلة بالأشياء ، قمصانات ، وتنانير ، وأحذية ملونة بالذهب وقوارير العطر · ومشت البنت ، تظل تمشي حتى تدوخ ، حتى جاعت · تنبهت على رائحة الشواء · ستشترى لنفسها شطيرة محشوة باللحم · لن تلومها أمها ، وسيضحك العم ، يدللانها هما الاثنان · أكلت ، ودارت ، ولفت ، حتى فات من الوقت ردحا طويلا ·

رجعت ، صعدت السلم مترددة ، طرقت الباب حذرة · فتح لها العم ، والشقة رائحتها مكتومة ، واللون في وجه الأم مزده قاتم ، أمها تعدل ثيابها ، رائعة حينما ينفرج طوق الثوب ، وينزاح فضل الذيل ، فتخجل الأم ويخرج العم ·

من مجلسها علـى السرير قامت • فتحت خـزانة الثياب ، تقلب فى ثياب أمها ، نظيفة مرتبة ، معطرة • قالت لها أمها بعد أن انصرف العم :

ـ اشترى لى هذا ، هذه القميصة المحلاة بالمخرمات، ثم اشترى لى زجاجة عطر ، ثم اشترى لى عمامة ، أضعها على رأسى فوق خمارى ، ألا ترين أنها أشياء رائعة ؟

البنت تمشى بيديها على حـرير القميصـة ، تمشى اللمسة فى ذراعى البنت الى جسدها فيعلـو نفسـها ، يسمع بعـد أن انقطعت قطرات المطر ، ونورت الغرفة من الشمس التى طلعت فى الخارج •

الغرفة صامتة ، البيت كله صامت ، لا يسمع أبدا الا صوت حفيف أنفاسها • بدأت البنت تخلع ملابسها• وقفت عارية قدام مرآة خزانة الملابس • نظرت ، اللون الوردى على جسمها ، ويقتم هنا وهناك • لهثت ، عانقت اللا شىء ، ضمتها لنفسها بقوة ، تميل برأسها مغمضة العينين لتستر حالها عن ذاتها •

أحست به من ورائها ـ العم ـ برودة جسمه تلامسها، اقشعرت ولهثاتها تتلاحق • انطبع عليهـا ، وصـار دفيئا • عزمه ونتوءاته تنوشها ، ساخنة ، وهى تتقوس للأمام وهو يلحقها • حمى أنفاسه تكوى رقبتها، يجمعها بساعديه ويحكم التصاقه بها • ضـاعت لهثاتهـا فى

اشتجار أنفاسه ، ثم صرخت ، صرخت مرعوبة ، فتحت عينيها ، كانت وحدها في مرآة خزانة الملابس. التفتت لترى أمها متمددة على السرير الى جوار عمها . ضحكت لوهمها أنها تراهما . هما مازالا خارج البيت ، وصورة أمها جنب عمها صنع خيالها . ضحكت . ضحكت لأمها ثم قالت لها :

ـ يا امي ، اتاذني لي يا أمي ان ارتدي ثيابك ؟ وأتعطر بعطرك ؟ والون اظافري بطلائك ، وأحمر شفتي بأحمرك ؟ أتمنى أن أكون حلوة مثلما تكونين يا أمي !

ضحكت الأم ، وضحك العم ، والبنت ضحكت مكركعة في وجه أمها وتبادلت نظرات خفرة .

بدأت تطلي أظافرها ، وتعنى بوجهها عناية العروس ليلة دخلتها ، ثم تعطرت وتناولت القميصة الحريرية البيضاء المحلاة بالمخرمات . تم ارتدت التنورة الطويلة من الكشمير الأسود ، وتخمرت بطرحة أمها البيضاء . وضعت العمامة فوقها وشدت أشرطة العمامة المذهبة ، تلفها فوق رأسها ، اكتملت زينتها ، البنت صارت فجرا مشرقا في مرآة خزانة الملابس ، أتخرج بزينتها هذه ؟

الحيرة في عيني الأم وعيني العم ، في رقادهما متجاورين على السرير ، تتوسل اليهما منكسرة الصوت تقطع كلماتها لهثاتها :

ـ يا أمي . الشمس في ظهر اليوم الشتوى كانها صبح مبكر ، صبح مبلول والناس فرحانون ، يظيطون بظهور الحسن في المناخ ، ألا انزل يا امي ليزفوني عروسا ؟ قولي لى آن أنزل لهم !

ومشت خطوات خارجة من الغرفة وفي يديها حذاء الأم المزين بشرائط مذهبة وضعته في رجليها بدأت تدب من على السلم الى الشارع مترددة فرحانه .

الناس واقفون أمام البيوت وامام دكاكينهم في عيونهم الفزع من اكتظاظ الشارع بالوحل والزبط ، كل يد تذود الوساخة عن اقتحام الأبواب والحيطان مبلولة ، والشمس منصوبة فوق الشارع ، تترك الألواح الذهبية لا تنجح برك السكة في تلويثها . مكبرات الصوت ترتل آيات الذكر الحكيم ، وبعض الدكاكين مولعة بأم كلثوم :

انت الآمل اللى احيا بنوره

كل هذا وسط الظياط والصراح والتفادى والتحاذر والضحكات على الناس اللذين وقعوا وتلوثت ثيابهم . وزوج الخيل معلق في عربة تكافح الوحل والحوذى يسوطهما ويصرخ بهما ، والناس يصرخون به أن أخذ عليهم الطريق فلا يستطيعون المرور .

البنت وقفت على العتبة مترددة ، أتمضى أم ترجع

انقضت عليها ابتسامة صاحبة الدكان فى مقابلة بيتهم :

ـ امض ٠٠ امض ٠٠ امض ، تخيرى لموضع قدمك بقعة جافة أو طوبة امض ٠٠ امض !

فتسندت على الحائط ٠ وبدأت تدوس على البقع الجافة ، وعلى كل طوبة تصادفها ، والشمس المبلولة والظياط يبعثان فى جسمها نشوة عذبة ٠ وكلما خطت يصيح الناس بها من على أبواب الدكاكين ٠

ـ هيه ٠٠ هيه ؟

حتى اذا مهوى الماء ، يجتمع فى عتبة غائرة ، فلم تستطع تجنبها ، فسقطت بحذائها فى بركة الوساخة ، فأسرعت بيديها تتشبث بالجدار حتى تنجو من السقوط، بذلك أفلتت تنورتها من يدها فانغطت فى الماء ٠ انطلق جمع أصحاب الدكاكين :

ـ يا خسارة الحذاء الذهبى والتنورة فى الطين يابنتى !؟

البنت تسندت خارجة من الحفرة ٠ كيف تخيلت انها ستبقى بمنجاة من وحل الشارع ٠ دمعت عيناها ، مشت الى دكان الخبز بعد مبنيين ٠ اشترت الخبز ورجعت، فاذا أمها تقابلها راجعة من عملها ٠ جاوبت الدهشة والذعر فى عينى الأم بكلمات مرتبكة متعسرة :

ـ كنت يا أمي أشترى الخبز لغذائنا !؟

الأم مضت ، حذاءاها وطرف ثوبهـا غارقان في الوحل ، والبنت تتبعها ٠

حينما ولجا باب بيتهمـا ، التفتت الأم لابنتهـا ، تتأمل زينتها وعطرها ، واحمرار شفتيها وخديهـا ٠ لبثت تتأملها مليا ، ثم استدارت ، وأسرعت تصـعد السلم ٠ فتحت باب شقتهم ، وانهارت جالسـة ، وهي تستر وجهها بيديها ، وانخرطت في نوبة بكاء حارقة ٠

البنت أغلقت باب الشـقة ، وجلست قرب أمهـا صامتة ، الأم تنشج نشيجا مرا ٠ نكست البنت رأسهـا تتأمل وحلها ووحل أمهـا ٠ تمنت أن تقـوم وتخلع ملابسها وتغسل وجهها ورجليها ، وتذهب الى حجرتها لتنام ، لكنها واقعة في أسر بكاء أمها لا يفلتها ٠

١٩٨٨/٣/٤

الجراحة ٠٠ !

● الى سجن أسيوط :

هكذا ٠٠ ، سافرت من سجن الواحات الخارجة الى سجن أسيوط ٠ أزيز العربة وصخبها يضيع فى صمت الصحراء الأبدى أتأمل ٠ ٠٠ حتى لكأننى أسمع ركز الصخور ، يربطني بها شمس مسلطة ، حارة وخانقة ، يتموج ضوؤها الباهر ، يتقلب فى تقلب التراب ، يثور عواصف ، ثم يخلد لناموس الصمت ٠

حتى أشفينا على وادى النيل ، فعرفناه من برودة نسائمه على جلودنا وجباهنا ٠ نسيم مبلول ذيوله بمساحة الماء ٠ والعيون تفتحت ، تبصر الأشياء فى ضوء قل ٠ ياسلام ٠٠ ثم نزلت من العربة مخفورا بقيد الحديد ٠ انه يجمعنى مع شرطى ، يكبلنا من معصمينا ، يمينى فى يساره ٠ ونحن راضيان ، انها اخوة رباط

الحديد ، وهي العداء يولدها القسر • يتخالطان . الاحن والمودة ، أصبر ، وينزق الشرطي ويثور ، حتى يجد ليونتي ويرضي كبرياءه المقيد بالحديد فيثوب الى برباط الذل •

انني كنت مريضا منذ زمن صويل بالتهاب اللوزتين، وتناوبتني الحمى ، وقالوا ان ذلك أثر على قلبي فضاق صمامه • انهم زملائي مسجونون سياسيون ، لكنهم أطباء ، لهم سحن عليمة ، وعيون تضيق بالتأمل ، وأصابع خبيرة مدربة • وبعد ذلك فهم في ثياب السجن تزدريهم العين • التفوا حول الطبيب الذي يطل علينا كل آن ، قالوا له شديدو التأدب : « ينبغي أن يجرى جراحة استئصال اللوزتين •• ! » وهكذا جئت الى سجن أسيوط ، ومنه الى المستشفى الأميرى •

فرحت بالرحلة ، وأخذني الهم من تكاليف القهر على ذات نفسي ، فأسلمتها لعسف الشرط والضباط ، وأنا صامت شارد العينين لدن الجسد ، يستجيب لدفعهم ، وعرضي يتسع لشتمهم • سار بي شرطي طويل متخلع المشية ، يحجب عني الرؤية من أمامي ، أمشي وراءه لا تحيد بصرى عن كتفيه ، انما أرى الأشياء اذا زاغت عيناى في اليمين وفي الشمال • ياخلق الله •• هؤلاء ناس الصعيد ، يا لسحن السفعاء ، وشوارب كثة وصياح وصراخ وضحك مكركع ، أرقب ، ثم تعود عيناى

لتستريحان على ظهـــر الشرطي الذى يقـــودني الى زنزاتي ٠

تأملني السجان المكلف بحراسة باب العنبر ، تمطى ذلك الرجل ، ودفع قدماه في حذاءيه الكبيرين من خلف الترابيزة التي يجلس اليها ٠ كلمني « ما الذى حملك الينا هنا يا ولدى ؟ عـــلاج آه ! الحـق بزملائك في الدور الرابع ، كلهم مريض ، كلهم ينشدون بعضا من الطراوة بعد أن تقددت جلودهم من شمس الصحراء !» ثم قيدني في دفتر العنبر ونادى عـــلى من أحضر لى بطانيتين وبرشا من الليف ، حملتهم على ظهرى ومشيت وراء السجان ٠ .

. . .

مشيت في وسط خلق كثيرين من المساجين ، خارجين من الأبواب في صف الزنازين الأرضية ٠ اتجهت الى السلم ٠ أرقى الدرج ، يرهقني حملى ، كلما وصلت الى دور وجدت الناس خارج الغرف متجمعين في الشرف ٠ الثاني والثالث ، حتى وصـــلت الى الدور الـــرابع ٠ وفرحت برؤية زملائي ٠ ألقيت بحملى عـــلى الأرض وألقيت بنفسي عليهم ٠ سلموا على وعانقوني ٠ هـــم مجروحون يلتمسون في عناقي جبرا لكسورهم ٠ وأنا قادم بوعثاء رحلتي أنشد عناقهم بعض الســلامة من تعبي ٠ ثم جلسنا ننتظر لشيء بيننا لا نراه ، لكنه قائم لا يطوله لمسنا ٠

● طبيب السجن :

كنت فى انتظار طبيب السجن ليقرر بشأنى ما ينبغى عليه اتخاذه . قلق فى انتظاره . مرتكن على سور الشرفة أمام الزنازين . خلفى بعض من زملائى كل فى شأنه ، أتأمل الهوة السحيقة حتى الدور الأرضى، ثم أصعد حتى مكانى ، أتفكر فيما يقولونه عن بشاعة الطبيب المتوط . أنصت لسجين صعيدى تهب على رائحة عرقه ووساخة جسده ووسخ خلقانه . أتأمل القمل كل واحدة مغروسة برأسها فى جلده .

أشرد ، ثم أفيق على حديث السجين الصعيدى . لست أدرى لماذا اصطفانى لصداقته ، وأنا صبور عليه ، أسمعه ولا أجيبه ولا أرد عليه ، فهو لا يسمع ، انه أصم تماما . انتابه خرق فى طبلتى أذنيه ، ويضغط على

عصب السمع ضجة مهولة . طبول ترن فيه ليل نهار . ألهذا غفل عن القمل يرعى فى جسده ، أتأملها وأرثى له .

يحدثنى انه يحتاج الى جراحة فى أذنيه ، والطبيب يحتاج الى رشوة كبيرة ، من أين له بالمبلغ الكبير ، حتى يحوله الى مستشفى أسيوط . ثم أشار لى ، ها هو ذا الطبيب . التفت فاذا بأفندى قميء ، أكرش ، أصلع ، منتفخ الوجه ، زائغ العينين ، يتلفت تلفت لص وهو يبدو أبلها مخبوطا ، يمشى أمام أبواب الزنازين ، وحوله المساجين يلحون عليه وهو غارق فى حاله ، يمشى لا يلتفت .

يمشى يخب حتى يصادفه مسجون يسد عليه طريقه وفى يده سيجارة ، يقدمها للطبيب . ينظر فى علامتها ، ثم يخرج العلبة المناسبة لها من جيبه ، ويدس السيجارة فيها . ثم يلتفت خلفه الى الممرض ، طويل قذر الثياب فى يده علبة معدنية لامعة ، وفى يده الأخرى حافظة فيها أوراق . التفت له الطبيب فأخرج من علبته قرصين من الاسبرين وأعطاهما للرجل صاحب السيجارة ، حتى أدركنى الأفندى وتابعه الرث .

التف حول الطبيب زملائى ، كل له شكاية أو مطلوب من الأدوية ، وكل يود أن يطيل اقامته فى سجن أسيوط ، اذن فهو يلبى كل مطلوبه وأنا واقف متردد

فى ان أفتح معه موضوعى وهو لا يلتفت ناحيتى أبدا • قال : « أين السجائر ؟ » فخرجت العلب من الجيوب وتواترت عليه العزائم بسيجارة واثنين وثلاثة • أخرج من جيبه علبا تختلف علاماتها ، ودس السجائر فى العلب المناسبة • فلما امتلأت خمس علب نادى على المرض وقال له : « خذ •• ! هذه خمس علب ، خذها وأعطنى ستين قرشا •• ! » أخذهم المرض ووضعهم فى جيبه وقال له أنا حاضر •

فجأة التفت لى وحدجنى بنظرة من عينيه قال لى : « جئت تنشد الطراوة •• ؟ أليس كذلك ؟ » شدهت وصمت وتطوع زميل لى بشرح موقفى له • والرجل بقى يتأملنى وأنا صامت • هل يزن‌ما أملك وما أستطيع أن أهبه له • ربما • انه فى الآخر قال : « حينما يخلو سرير فى مستشفى السجن أحولك عليه ، ستبقى فى مستشفانا حتى يطلبونك فى الميرى ، اذن تروح الى هناك يجرون لك العملية •• طيب ياسيدى •• ! » •

وانصرف يلحقه مساعده ، وأنا بقيت أنظر فى أعقابه • حتى أفقت على الحاج السجين الصعيدى • يتكلم وأنا لا أدرك مما يقول شيئا • شارد • أفكر فى صعيد مصر • سقطت الأسطورة عنه وبقى عار مثل سمكة مملحة • يكلمنى السجين الصعيدى ، ومن ناحيته

تهب عـلى ريح نتنة ، قال لى : « ألا تكلم الطبيب حتى يحولنى لكى أجرى الجراحة ؟ » أغمضت عينى ورفعت قبضتى فى وجهه كأنما أصرخ وقلت هامسا : « اننى لا أعرف هذا الطبيب ، ولا أعرف له مثيلا فى الأطباء أبدا .. ! » .

● فى مستشفى السجن :

جاء سجان يأخذنى الى مستشفى السجن · ابتسمت لزملائى وأشيائى فى يدى ومشيت · وكالعادة تعلق بصرى بظهر السجان وهو يمشى يتخلع يسد على أفق الرؤية · خرجنا من باب العنبر ، وعبرنا اجراء القيد فى دفتر الحضور والانصراف · ثم مشيت فى فناء السجن · ناس كثيرون ذاهبون وآتون صخابون وأنا من دونهم أبحث عن المبنى الذى نقصده · وقد كان ، المستشفى قائما فى أقصى الفناء · وكان على أجوز اجراء القيد فى الدفتر · ثم جلست على سريرى محتارا مترددا فى قاعة كبيرة بها صفان من الأسرة لصق الحائطين ، يخليان ممرا يشغله الممرض ومساعدوه من المساجين حتى ألفت فتمددت ·

سريرى قبالة سريره · تعرفت عليه · قربنـــا من بعضنا الصمت والملالة وسكون ورصانة في طبعه · انه مكسور ظهره ، فلف جسده بالجبس فلا يستطيع حراكا · مشى ليمه ، أجلس على حافة سريره ، يبتسم لى مرحبا · انه رجل وسيم ، والنبالة في جبينه وعينيـه وشـفتيه حينما يتكلم أو يبسم · أنصت وأغرق فى الراحة من حديثه والرطانة الصعيدية · بلدته فى الصعيد لها اسم بلدى في وجه بحرى · ·يا سلام ·· والناس هنـاك لهم شئون أخرى ·

فاذا بهم يهلون · أقاربه جاءوا لزيارته ، انسحبت الى مكانى ، وهم رجال كبار ، وجدعان طوال ، أكمامهم واسعة ، وخيزرانات سويسية والشوارب مبرومة ، أما العيال فشواربهم بمد نوايا سمراء أعـلى أفواههـم اصطفوا بسريره ، يتكلمون ويزعقون ويهمسون وهـو صامت ، واثنان من حراس السجن واقفان يرقبان · لما اطمأن بى الحـال طفقت أتأمـل ، حتى ميزت أخاه من بينهم وأباه · هرجوا ومرجوا ، وأطالوا الأحاديث ، ثم قاموا ، همة كبيره ، والخيزرانات فى أيديهم والعمـائم كابسة على الجباه · سلموا بقوة · صافحوا ، ووضعوا أيديهم على صدورهم بعـد كل مصافحة ومشوا وذيـول جـلابيبهم تطير مع الهـواء ثم كبس الصمت على قاعة المستشفى ·

سريرى والسرير الذى قبالتى ، مشيت اليه ، وجلست اليه وعلى وجه صاحبى الكآبة . قلت له : « ماذا يا أخى ؟ » قال لى : « انه الثأر يا أخى ! انطلقت رصاصة أودت بحياة عمي ! مازال يرقد ودمه ساخن ! الثأر على اذا خرجت ، وأنا وشيك الخروج ، والا وقع على أخى الذى يصغرنى ! » .

وأنا بكيت أخاه الذى يشبه عمي . يا وحدة الملامح، والهموم تختلف .

وجاء الطبيب . مر على المرضى الراقدين فيالأسرة ، كلما مر بمريض كلمه أو شتمه . حتى اذا جاء الى رجل يدثر نفسه ، يكشف وجه ضبع يشع . مال عليه الطبيب وجر كرسيا وجلس الى جانب سريره وبدأ يكلمه حديثا هامسا بعد أن صرف الممرض وأتباعه . الآن غرقت القاعة فى الصمت ، ليس هناك الا تسمعنا للحديث الذى يجرى . قال الطبيب للمسجون : « ألا تمكننى من ردفك يا ابن القحبة ! » الكلام هامس رقيق ، فرد عليه المسجون : « شقى متاح لك يا وسخ ، الا أن تشق اليتى وتخرج الابرة البلاتين منها .. لا .. » فهمس له الطبيب : « وماذا لو أعطيتك خمسين قرشا في مقابل حصولى على الابرة ؟ » قال له المسجون ، « أريد خمسة جنيهات في مقابل الابرة ! » قال له الطبيب : « سأخدرك وآخذها رغما عنك ؟! » قال له

السجين : « وأنا أصيح واخذ بتلابيبك حتى أفضحك في الدنيا ويأخذوك الى الجحيم ! » .

حـل الصـمت . قلبي يتقلص أحس بآلام تكبس بمقابض حديدية على صدرى حتى نهض الطبيب من جنب المسجون وهو يقول : « طيب ! » ومشى على أهداب الصمت ووجهه متزرق وعيناه عكـرتان مما به من الغضب .

● فى مستشفى أسيوط الأميرى

الصبح فيها شمسه ذهب ، ألواحه مفروشة على أرض الفناء ، وعلى واجهات المبنى · أراه من خلال القضبان ، وشبك السلك على شبابيك غرفتى · غرفة مقصية على جنب الفناء ، معزولة ، مخصوصة للمساجين السياسيين ، وللمجانين ، يبيتون بها ليلة أو ليلتين قبل أن يرسلوا الى القاهرة ، ونحن نبقى بالغرفة ريثما نعالج ثم يعيدونا للسجن كرة أخرى ، نعم ·· هكذا ·

الصبح ذهب ، كأنما الدنيا مسبوكة من نضار ، تنعم عينى بالألوان ، رغم تعبى من قلة نومى بالليل · فقد سكن جنبى مجنون ظل يخبط ويكركب ويصيح انه ليس مجنونا ، وكنت جمهوره الوحيد ، أغفو ثم أستيقظ على صراخه أفتح عينى على بهاء الدنيا وأرقب مرور

البنات الممرضات لابسات الأبيض ، عذاب مثل عذوبة الصبحية • خذن تعبى من جسـمى الى فتوة قدودكن ، فى بهاء وجوهكن ، فى جرس الضحكات •

وأرقب منهن على وجه الخصوص الصغيرة الوسيمة • عذبة الحديث ، جميلة اليدين ، حينما تحدثنى يقـوم بينى وبينها نهداها • هى تدل بهما ، الكلمات تصاوير من حركتهما • وأنا غارق فى النعمة ، وهى سـكرانة نشوى ، تقول لى على خطيبها ، والحديث حنـان • اذا مـا حرت الشمس انصرفت ، انهـا لا تأتى لغـرفتى ، ليست مخصوصة لخدمتى ، آه لو كانت •

انما تأتى بنت بيضـاء نحيلة ، تعبر بالحـرس الجالس أمام غرفتى ، تتثنى ، تغنى « البيه •• البيه ، يافندى ! » ثم تغرق فى الضحك وتنـدفع الى غرفتى فأتلقاها فى حضنى ، ريحهـا ومذاقها وكيانها الرقيق كلما أوشكت تخلصت منى ، أقف مرتجفا ألهث ، وهى تكركع بالضحك ، تحقننى ، تقيس لى الحرارة ، تعطينى الأدوية ثم تنصرم من غرفتى بذات السرعة التى جاءت بها •• آه ياخلق •• من المتع التى لم تكتمل •

يفجؤنى ممرض الغرفة ، تسبقه ابتسامة متزلفة . يقول لى : « كيف حالك يابنى ؟ » يحدثنى كأنما أنا زوج ابنته ، وابنته وراءه • يتركها لى ، وهى سعيدة باذن

أبيها المضمر ، فتتيح لى نفسها ، وتلبد فى لاهثة مهتاجة • وأنا آخذها من كل سبيل ، أحيطها ، أعصرها، ويداى تتحسسان سمانتها ، يخنقنى ريحها وأتركها تمشى متلفتة تبسم لى :

أشتاق للشاويش العيدروس الذى تبدأ نوبة حراسته في السادسة مساء هو وزميله مسليان جدا ، ويسرنى العيدروس حينما يحدثني بانطلاق عن أيام ما كان فى الوفد قبل ثورة يوليو • كان زمن اذا الواحد خرج فيه متظاهرا أو يناصر نائبا وقديا ، يرفع يديه مقبوضتين الى أعلى ويقول •• تحيا مصر •• المجد لمصر •• وأنا كنت أرتجف من حديث عيدروس بينما يرقد علينا تراب الصمت ، وقلوبنا تلبص تحت أكوام التراب •

لكنه الصبح ذهبى الشمس ، وأنا سأجرى جراحة اليوم • أخذونى من غرفتى على العربة النقالة ، يدفعها ممرض طويل يلبس الأبيض وخلفه يمشى اثنان من شرطة الحراسة وأنا مستلقى على ظهرى أفكر فيما سيجرى لى ، وكنت طول السكة ، عبر الفناء حتى المبنى ساكن النفس غير قلق ولا مؤرق •

أمام المبنى ركنت العربة النقالة وجلس الشرطيان على جدار الشرفة ، نحن الثلاثة يرين علينا الصمت ،

كل آن يخرج واحد من الغرفة على عربته ، منكفيء على وجهه يفيض الدم من فمه · كلهــم أجــروا جــراحة اللوزتين ، وأنا صبرت وســكت عــلى خوفي · بقيت أنظر حتى العصر ، ثم دخلت ، ابتسم لى الطبيب حتى أعطاني حقنة المخدر ·

استيقظت على وجه عيدروس يعانقني ، يضمني الى صدره ويقول : « آه يابني ياحبيبي ·· آه يابني ! » ومدفعه الرشاش ممددا جنبي على السرير ·

• الرجوع الى السجن

تمددت على سريرى فى مستشفى سجن أسيوط . كلما فتحت فمي بكلمة أو لتنفس تدفق الدم من حلقي. بقيت هكذا ، أكتم الدم فى فمي ، لكن دموعى تتدفق. المشاهد القديمة ، الأسرة والمرضى والخدم ، ينقصنى زميلى الذى كان قبالتي . الآن سريره خال . أسأل عن الرجل ؟! خرج ! آه .. أتراه الآن يدبر مقتلة رهيبة لقتلة عمه ؟ صمت ، ربما أجيء الى هنا مرة أخرى ، فى مرض آخر ، وأصادفه ؟ لا .. يا ربي .. وددت أنه لن يحدث هذا .

وينقصنى أن أرى الطبيب وتابعه الرث ؟ جئت بالأمس مساء فلابد أن أراه صبح اليوم ! يأتى ويجلس جنب الولد الذى خبأ ابرة البلاتين بين فلذات لحمه

ويحتال عليه . أتخيل المناقشات وأبصق الدم في منديلي . تأملت وجوه الناس على الأسرة في قاعة المستشفى الفسيحة . في طرفها القصى يرقد الولد بكنز بين طيات لحمه ، وبعده بسريرين يرقد الرجل الذى يحتضر . قيل لى انه منذ مدة وهو يحتضر . ويقولون انه يخفي مائتين وستين قرشا في حق أولجه من استه الى مصرانه الغليظ . ذلك طبيعي ، وعرفه الطبيب فجاء به من زنزانته الى هنا حتى يموت فيشرحه ويستخرج النقود بنفسه ، هكذا قيل لى .

وقال لى الرجل الذى يخفي البلاتين في ردفه ، يكلمني عبر الأسرة : « انه ينتظر موت الرجل ! » ويشير بيده عبر السريرين الى الرجل الذى يحتضر : « سينهب الرجل ، سينهب ماله الذى دسه ليأمنه ! » قلت له : « أنت تذكره ، فيأتي يتخطى ! » فاذا يأتي الممرض من أول قاعة المستشفى . يوزع الأقراص والأدوية على المرضى . جاء دور المحتضر . مال عليه الممرض . تفحصه ، ثم تفحصه مرة أخرى ثم يضج بالضحك ويهتف مجنونا : « ان الرجل مات ! الرجل مات ! » ثم وضع الأدوية من يده على المنضدة ، وأسرع ينادى طبيب السجن .

خروجه خلق لحظة صمت سكنت في قاعة المستشفى شاملة كل قلب . انشقت الأرض عن الطبيب .

ينفح تعبه وهـــو يكافح بقــدميه ويديه القصيرتين .
وخلفه الممرض واثنان من حراس السـجن . كلمهما :
« احملاه من سريره الى الغــرفة ! » ثم كلم الممرض :
« هات عــدة التشريح يا ولد ! » فحمله السـجانان
واختفيا به وراء جدار الغرفة وفي أعقابهما الطبيب .
انتقلوا الى خلف جدار الغرفة ، ومعهم مشهد للفرجة ،
وصارت للناس صلة مثيرة سمعية بما يجرى هناك .

قال الممرض للطبيب : « ألا تأخـذ القناع وقفـاز
الجراحة ؟! » فرد عليه الطبيب . « دعنى يابن الكلب!
ناولنى المقص .. ! » ثم كلم السجانين : «عرياه ..!»
ونحن تابعنا من خلف الجدار لهاث الأنفاس وصــوت
الحركات المكتومة ، وأنا مرتعب ، أنصت لصوت المقص
يقد اللحم وسط الصمت الجاثم عـلى القاعة . وصلتنا
نهنهة مكتــومه من الرجــل الذى كان يحتضر ، جلجلت
نهنهاته ، لحقها صراخ الممرض وارتطام جسده بالأرض
من سقوطه ، واختلاط زعيق الطبيب بزعيقي السجانين .
وخرج الطبيب أبيض بياض المـوت ، وفمــه مفغور ،
ويداه يتساقط منهما الدم . وأنا سقطت مغشيا على .

في اليوم التالى حكوا لى أن الرجل لم يكن قد مات،
الا بالتشريح ، والممرض أصـابته اليقظة ، وجــدت
حارسا من حراس السجن يأتيني وفي يده ورقة ، تصريح
خروجى . خرجت فى حراســة السـجان حتى الدور

الرابع فى العنبر . سلمت على زملائى السجناء السياسيين ، وهم كانوا صامتين من وقع الخبر عليهم . ودعتهم متوجها الى سجنى فى الوادى الجديد ، ولما أسرفت فى الكلام فاض الدم فى منديلى .

السرى بالليل ٠٠ !

خرجت من قريتى الى شسوع الزمام ، وأخى معى ٠ أمامى لمعة القمر ، يبين بهاؤها على قمم الشجرات ، وعلى الورق فى زمام الزرع ٠ ومن وراء كتلة العمار ، رمادية ، وفى ظهرى دفؤها وفى أنفى بقايا من زخمها ، أمشى فيها وفى قلبى ثقلها ، يتمدد حتى يأتى على الفراغ ، على المعانى التى أمتعتنى زمانا ، تهت فيها ٠ أتأمل فيافيها دونما تأويل ٠

قلت لأخى : « أتعرف ، انما تكومت قريتنا حيث هى ، وكان الى الغرب منها ، بالميل تجاه الجهة البحرية مقبرتها ٠٠ ! » قال لى أخى : « نعم أعرف هذا يا أخى ٠ ! » قلت له اذن : « ثم زحف العمار ناحية الغرب مائلا تجاه الشمال ، فالتهم المقبرة ٠٠ ! » قال أخى : « نعم

أعرف ذلك ، وانه تخلفت عن المقبرة مقـــام سـيدى سليم ·· ! » قلت له : « ان الاولين من قدامى جدودنا ورءوس أسرتنا هم مثواهم فى هذه المقبرة القديمة ·!» قال اخى : « ذلك عزاؤنا ·· ويقال ان سيدى سليم هو جدنا الأعلى ·· ! » قلت له : « لما رأى أهل ذلك الزمان زحف الخلق عـلى ساحة الموت يبنـون فيهـا ويعمرون صمتها بالحس والنفس والغنـاء للشـيخ فى المواسم ، ابتنوا مقبره فى الشرق الى الجهه القبليه ·· ! » قال أخى : « ان جدنا الأقرب كان يود موتاه هناك بالطرائف من كل موسـم ·· ! » قلت له : « انا لم تر ذلك أبدا انما سمعنا به ، اذا حكى لى أبى أن لأبيه أختا فى هذه المقبرة يقعد قدام قبرها ويدللها بالأسماء ، وأنا والله أحببت ذلك الجد من حكاية أبى عنه ·· ! »

قال أخى : « درست هذه المقبرة وتخلف عنها مسجد سيدى سعد ، والله هذا وسيدى سليم ، هذان الضريحان هما زينة العمار ·· ! »

قلت له : « آه ·· آه يا أخى ·· انهم فى الـزمن الأقرب الينـا أنشـأوا مقبرة ثالثـة موغلة فى الأفق البحرى لا يطولها الشوف ·· آه يا أخى كان بينى وبين المقبرة طريق ، أبد من الخوف ، سكة تمشى فى الخلاء حتى المقبرة ·· الآن على جانبى السـكة بيوت معمورة حتى رسى حائط البيت لصق حائط القبر ·· »

قال أخي : « ازدحمت الحياة بالأحياء .. ! »

قلت له : « وما عاد في القلب فراغ ، ولا معان غير مؤولة .. ! » .

يطهرني ندى الليل وطيب ريحه ، أمشي فيه أهرب بوجهي الى برودة مكنونة تتسرب لي وبها ترتجف أستار العتامة الفضية ، وتطير بنات الهواء من الطيور الليلية من البومات والخفافيش والفراش والجراد والنطاط . يطرن ، ينشنني في وجنتي وعلى جلد وجهي ، يدغدغنني فأضحك ، فرحان بالبومة . وجهها ابن أخت وجه القمر مرسوم العينين والابتســامة مخيفة تحت قوس الأنف ، والخفافيش هي فيران رقيقة هشة العظام تصر في أذني اذا طارت محلقة ، والفراش والجــراد لا يفتك الليله بالزرع ، والبومة تعفي الجرذان من صيدها والطيــور بنت النهار التي أوت الى أعشاشها تنظر الى السلام الليلي وتستعجب ، عيناى تنعمان بالمرائي القمرية .

اذ يتلعب اللجين على وجه الماء ، يتزين هنا بغمازات ذهبية ، ويستضيء صدور النواهد ، وتكسر تحتها ظلالا سحما . هو فردوس النبش ، يميل المنظور على « الله .. الله .. » ترتلها كل آن النسائم رخية رواحة ، يختلج الضوء والظل بأشكال الفروع ، وقلبي شهيد ، وهمس الذاكرين . رنقت مفتونا ببستان النــور والحلكة تنزهت .

تطمئن قدماى بالدوس على رطوبه الترى ، كما لو كنت أدوس !؟ ولا أظلع ولا تبهظنى يدى . ان كانت ذبلت وعلقت بكتفى ، ميتا وتحيا الاخرى بالحركات ، ويرين الصمت على نصفى اليمين . ويخف عنى عبء يدى اذا ما شبكتها مع الأخرى وأرحتهما على حجم بطنى . وتستريح ساقى بطول الأخرى ، وارتاح فى متكئى ، وأبتسم ، وجهى مكسور باغماض عينى اليمنى ، أشتاق للتفرج على المجالى القمرية ، من مستراحى ، من محفتى يهدهدنى ترجيع الذاكرين ، وميد أكتافهم بلين الخطى ، فلا يلحقنى العنت ، فكأنما أدوس ، الأرض رطبـــة ، والرطوبة تلحق باطن قدمى .. فلا تبهظنى نزهتى ، أنظر ، تربت عيناى على الأشـياء دون تاريق البهـاء البدرانى ، ومن اجتمـاع حسن البصر والسـمع ومن ارهاف جملة العصب تتـولد البصـيرة ، تتبع خيـوط الضوء الحريرية الفضية حيث تنسج قبايا وقبابا وتتدلى الشراسف وبدع الزينة ، وهنا وهاهنا ، ويطوى فضل القماش الجميـل . أكل ذلك القـز نفث القمـر ؟ أم الحيوانات الرابضة فى الجحور ، أراها . بريق عيونها وأسمع ترداد تنفسها .

الذئاب على حدود دائرة وجودى ، تنبعج بسرائى ، وتلتئم بتريثى ، ويأتينى العواء من المحيط مختلطا بنبح صـدور ماكينـة الطحين ، دمثته المسـافة والنسـائم

وشخصتها في الأوراق ، وهدأ من الصوت ضوء القمر .
وضحكت ، قلت لأخي : « اني اضحك على التحدير الذى وقيت به صغيرا : أن أميز بين الكلب والذئب ، هدا مدلى الهامة ، محني الذيل .. ! » ضحك اخي لضحكي وقال. « وامنا اوصتتنا بأن لا نمر من الدئب ، بل نمشي في طريقنا ثابتي الخطو ، ثابتي النظرة ، تلك نجاتنا ..!» قلت لأخي : « أنضحك لذكر امنا وابينا ؟ أم هما في الدار وخرجنا عنهما لنزهتنا المسائية ؟ أم هما خلف الأفق ونتعب بالتحديق فيه ؟ » قال أخي : « هما بالخيال .. كانا بالخيال ، وهما حيثما كانا انما بالخيال .. يستوى الأمر يا أخي .. ! » ضحكت وقلت له : « آه .. نعم .. لكنني سالم في سراى الليلى ، فكلهم كلابى هذا المساء .. ! » الذئاب والثعالب والتيفان والقطاط البرية والجرذان والحرباءات . يا لهذه .. ؟ انها تخضر اذا ربضت على شجرة في صميم اخضرارها ، ثم تستحيل الى لون الثرى على الأرض . أهى الآن أيان ما كانت في الدائرة حولي تبرق بلون الفضة ؟ ثم أخذني الثقل في صميم قلبي . قلت لأخي : « لكن الثعابين يا أخي .. ! » فقال أخي : « انها تقوم بقاماتها على ذيولها وتفح .. ! » تمشي الرعدة في بدني . قلت لأخي : « أتصور أن لها ذراعان مستوفزان ، وقدمان مغروستان في الأرض راسخان ، وتفح .. ! » قال أخي وقد مشت الرعدة في صوته : « لها لسان كالسوط

يضرب ، وتضرب برءوسها غاية المفاجاة ، تخطف عصافير السمار ، ينكتم صئيها ، وتنبتر الرغبة قبل لقط الجثة .. ! » قلت مذعورا : « لا .. لا .. ليس في مسائي هذا !! » والثمانين هذا المساء طيبة . تتمدد في القمر ، والنور ينزلق على ملوسة جلدها تستصفي عيونها جوهر الضوء في ماسات تخلع قلبي المشبع بحكايات كنوز سندباد . باهرة . يا للألق، والضفدعات ينققن لا تبالي ان زاحمت حتى السحالي ، انزاحت ، وهي تنزاح لها كيما تواصل النق . والجنادب يرهقن القوس — من مناشير رجلها — على رصفة جناحها ، تصر وبنات الأرض من دود وأم أربعة وأربعين وكلاب البحر وغير ذلك ، كلهن يجاوبن حدو الضفادع بالحداء ، ويتقبب الأفق من عمق الترديد ، وتصلصل خبطات الذاكرين ، تحملني ، يرجحنني ، وأنا مرتاح ، وأميل كلما جاءني صوت ماكينة الطحين ، صفيرها ونبح دولابها ، يجيئني على غير مفاجئة انما هو مرتبط أوثق رباط — رطم عددها الجنازير والتروس وضمضمة الحجر — مرتبط أوثق رباط بنبض قلبي .

قلت لأخي : « كنت يا أخي أذهب بأختي لحد هناك بطحيننا الى ماكينة الطحين ، أركب جسم الماكينة ، ترتجف وترجفني حتى أدوخ ، والسخونة السائدة في الغرفة ، والزن يصم آذاننا . ارى أختي والدقيق على

ملامحها وشعرها من عابق ابيض » قال اخي : « كنت اراكما أيبان بالطحين وعليكما وعثاء السكه وجهد العمل ٠٠ ! » قلت له : « كنا ننظر ، نترامق حيرتنا ، والذهول ، الأشياء ابيضت من النثار الطائر ٠ مشيت اترنح حتى القادوس ، امسكت حافته ٠ نظرت ٠ الحبات يتساقطن على الدوران الساحق لحجر الطاحون ، له زئير يرج الغرفة ، يرجني حتى القلب ٠ وتلك فلسفة الطحن ، تنسحق الحبة في ضجة عديمة المثال ، ويطير بعضها يركد على أيدينا والوجوه ٠ ثم نثوب بالتعب وبالحزن انا وأختي ، ثم ان قلبي في قبضة الماكينة مايزال !! » وقال أخي : « نعم ٠٠ ماكينة الطحين » ونظرت ناحيتها وتاف بصري عنها ٠ تجاوزتها ، وتجاوزت الأفق الى غيبة في التذكر ، حدود يقصر عنها الضوء ، أتحسس جسوم التخيلات في الظلام ، وأشاور ما يحضرني من أخبار حفظتها من ذكرى للأقدمين ٠ عن ترب هي أكوام من الهدائم ، لا يقوم لها أكتاف وتنبقر البطون ، والضباع وطول عوائها ، لها يدان حفار تان عارمتان، وتنهش ٠ هتفت بأخي : « يا ربي ٠٠ انا طهرنا الأرض من الخرافة ، وبقيت هذه تعمر أجزاء من الخيال ٠٠ !» قال لي : « وما ذاك يا أخي ؟ » قلت له : « الضبعة تفتك بالموتى في القبور ٠٠ ! » قال أخي : « يا لهفي على الخيال ، من دوسه بثقال أقدام الحقائق ٠٠ ! » ضحكت على أخي وقلت له : « انا كنا ارتحلنا كل مساء صوب

الخرافة ، أليس كذلك ؟ » قال لى : « وأنا امشى على اثارها أندركها يا أخي ؟ » ضحكت له وقلت : « ليبق لؤلؤ القمر ، وتتأبد اللمعة الفضية ! » وترجيع الآفاق للاصوات وتهدج بحات الذاكرين ، يعجلون السير بى ، أتراهم يتجاوزون المضيء الى ما خلف الضوء ؟ ناديت : « رفيقى في سراى بالليل .. ! » تحسست بيدى عشواء من مرقدى العالى ، صادفت كتفه . رفع الى وجهه في وسامة وميسم الرجولة ، ومتحسب خجول رد على وقال : « نعم يا أخى .. ! أنا هنا معك .. ! » قلت له : « أليس القمر بعد لنا .. ؟ ولألاؤه ؟ وصدر المساء نشقق فيه بمحاريث الأحاديث العذاب ؟ أليس كذلك يا أخى ؟ وحسان الكلم ..؟» قال لى : « نعم ، الأمر كان هكذا .! » قلت له : « وكانت رفقتك لى متعة من المتع .. ! » قال لى : « وسائر الاخوان من الأقارب والأصحاب والمعارف . المعجبون بك .. ! » قلت له « خرجت بك الى المساء .. ! » قال لى : « خرجت معك ومعك جميع الناس الذين عيونهم عليك .. وهكذا كان موكبا حافلا . ! »

يمشى بى حملة محفتى ، يدرجون ، يحممنى القمر ، أحس برذاذه فوق جلدى وتحت ملابسى . ويلطسنى الهواء فأضحك أغرق في الضحك حتى أدمع . من امتزاج الضحك بدموعى انفتلت حكاياتى . أحدثه بأحاديثى القديمة ، أتحدث بكل العنفوان فيما كان في شبابى .

وهو أبيض قوداه وعلى وجهه الحزن قلت له : « ابعـد
ما تروقك حكاياتي عن البنات ٠٠ ؟ » قال لي : « كانت
راقتني زمانا ٠٠ ! » قلت له : « اذ ينطلق القطار في
الأثير ، يشق الفضاء عن اللون ، وهي قدامي ، انضج
في نارها والعب تلاعيب الساحر حتى تدوب ٠ ينبعج
قدها مغمضة مفترة وينهض صدرها٠الكبرياء والأبهة ٠
الرسالة لي ٠ الاثنان ساعيان لي ، وانا قادم من آخـر
سفرة الشوق ٠٠ ! » قال لي أخي : « وبعـد ذهبت في
الكتب ٠٠ قطرة حبر وبيـاض القرطاس ، ثم كانت
البنت سـحرا ٠٠ ! » قلت له : « اذا ما حـدثتني عن
الرجوع من المساء ٠ ليلتهـا كنت هنـا ، وكان القمر
غاب ، ونورت النجوم ، يمضين يفتشن عن جدع وبنت
يتواريان في الظـلال بلواعج السطم وحار العناق ٠
رجعت من المساء نورت في عينيك نجمتان ، وأنا هنـا
على وجناتي شحوب المصباح ، وهي تاخذك الى مجاليها
ــ تحـكي لي ــ اذا انبهرت أخـذتك قسرا الى ما يبهرك
أكثر ٠ تهصرك اليهـا ٠ تتحسس وجهك والعضـل
والأعضاء ، تغرق في حليب فمها مرغ دافيء ٠ تصرخ
بك أن الرجال سكر ٠٠ وتشرب من مشاريبك ٠٠ ! »
قال لي أخي : « انهن ذهبن البنات ٠ انطفأن ٠ مضـين
برغبتي في النعمة بالنعومة ، بالوجنات والعيون والثغور
قلت له : « أما بعد فما تفتنك حكاياتي عن أبينا ٠٠؟»
قال لي : « لقد مات أبونا وأخذ شوقنا لعناقه معه ٠٠ !»

قلت : « لقد مات وترك في عيوننا نظرات التيه تجاوز تخوم المرئي ..!» قال : « وبقي لنا حارق التحنان..!» قلت : « واذا تفلسفت أركب الكلمة على الكلمة واشقق بطون المعاني لأخرج الحكمة من المعنى .. ! » قال : « وأنا أسألك متى الثمرة تسقط من علياء الفرع تندثر في الرغام .. ؟ » قلت : « أخ .. ! » قال : « وهى حافلة بالبهاء والزينة .. ؟ » قلت : « انهـا تضربهـا الآفة .. ؟ » قال : « من رونقها لا أرى ما يعيبها ..؟» قلت : « انك ترى الآفة في جسمي ..؟» قال لى : «نعم .. نعم ..! » قلت : « انها لا تضير بى ..؟ » قال : « أنت حافل بالبهاء والزينة .. ! » قلت له : « آه .. آه .. !! » نظرت للقمر وتأملته وأحببته مزجج الحواجب مكحولى العينين مرسوم الشفتين . مولع به ، مشـدود اليه . تنشطنى المسرة . يأتينى الضحك ويروى أبدا من الحزن . من ابتسامك يا قمـر . أكركع فى وجهك وتورق أكمام النوايا البهيجة . وواصلت حديثى مع أخى .

قلت له : « وبعد كنا عيـالا شـبانا .. ! » قال : « والآن هرمنا يا أخى .. ! » قلت له : « والبـدر فى اكتمال شبابه .. ! » قال : « اسأل مشيميك ، واسألنى، لم يكتمل القمر بدرا على أبهى منك .. اسأل الذاكرين المرتلين .. ؟ » خبطت النعش بيسارى ويمناى راقدة

ساكنة في جنبي · تتقلب الأحوال على ملامح وجهي ، أما وجه القمر فخالد الابتسام · ميزت وجوه الناس الذين جاءوا يشيعوني · قلت لأخي : « غابت خواطري بحلو المسامرة ·· أخ ·· الآن ·· سقوط البهاء ؟ » قال لي : « ما أفجعها في كل مرة ·· ويالانفطار القلب عليك ·· ! » ·

ميزت خطو الذاكرين وترتيلهم · قلت لأخي : « ما الذي يقرءون في جنازتي ·· ؟ » قال : « دلائل الخيرات وبردة الأباصيري ·· ! » قلت له : « كنت أفضل شيئا أكثر مرحا ، أكثر رفقا بحالتي المزاجية ·· ! » قال لي : « من عليك الدراويش بالقراءة اكراما لوالدنا ·· ! » قلت له : « رحم الله أبانا ·· ! لقد خصنا بالقراءة ·· ! » قال : « نعم ·· نعم ·· ! » قلت له : « تذكر اذا كنا نخرج لمسائنا كنا نولي وجهنا للناحية القبلية ، ونخلي النسائم البحرية في ظهورنا ·· الآن يسرع حملة نعشي في اتجاه المقبرة ·· ! » قال لي أخي : « المقبرة حيث وليت وجهك ، ان قامت أو درست » قلت له : « ان أبانا اذ أصابه الذهول في آخر أيامه كان يمشي ميمما شطر الجنوب ·· ! وهو اذن كان يمر بمقبرة القرية التي درست في الرواح والاياب ·! » قال أخي : « نعم ·· نعم ·· ! » قلت له : « اني أتلقى من يم المقبرة الريح بردا وسلاما على وجهي ·· ! »

قال أخي : « انها بحثة مبروكة ٠٠ ! » قلت : « اذن ٠٠ اتكون البداية بالموت ؟ أم بالولادة ٠٠ ؟ » قال : « انك تسأل وتستعصي الاجابات ٠٠ ! » قلت : « اذن ٠٠ خلى الذاكرين حملة نعشي ومشيعي جنــازتي يتمهلون ٠٠ رفقا بي ٠٠ خلوني أتأمل القمر ٠٠ ! » قال : « انهم محبوك، وطائعوك، والمباهون بك ٠٠ أنظر ٠٠ انهم جمع احتشدوا من أجلك ٠٠ ! » قلت : « آه ٠٠ يا فرحي بهم ٠٠ وفي آخر جمعهم تكون حشود النساء ٠٠ ! » قال : « نعم ٠٠ نعم ٠٠ انهن هناك ٠٠ ! » قلت : « وهــذه عمتي من بينهن ٠٠ ؟ » قال : « انها أهلكت نفسها بكاء عليك ٠٠ ! » قلت : « انها المرآة ٠٠ وفيها شيء من أبي ٠٠ دومي يا عمتي كالقمــر ٠٠ أغــربي واشرقي في مأتمنا ٠٠ شجي صــدرك عــلي ٠٠ أنا مرتاح لصــوات الاناث في أعقابي ٠٠ في أعقاب جنازتي ٠٠ ! » ٠

زحفت نحو الغيبة، بعدما بدأ يأفل القمر، وينكسف لألاؤه ، وتنمحي حــدود الشجرات والزرع ، وبنــات الهــواء ، وبنــات الأرض ، يركن الى قرار صــامت ، ويسكت الترتيل ، وينقطع حفيف خطو الذاكرين ، وأنا على حدود الضوء ، التفت الى أخي كلمته قلت له : « هل تتذكرني بعد اذا رحلت ؟ » قال : « بذكرك أحيــا ٠٠ والموت غير ذلك » ٠ قلت : « هــل تودني بالزيارة كل آن ٠٠ ؟ » قال : « في المواسم، بخير ما في كل موسم ٠٠

أودك يا أخى » قلت له : « أنت جميل يا أخى ٠٠ ! » وصفرت ماكينة الطحين على حافة المرئيات. بذلك كبست على الظلمة ٠ وانطلق عـواء الضبعة ٠ قلت فى نفسى لنفسى : « هكذا طهـرنا الأرض من الخـرافة ، وبقيت هذه تعمر صحائفنا والكتب ٠٠ ! »

القاهرة ٧/٩/٨٩

جدل الحياة والموت ... !

● الرعب :

سحبته من ذراعه سحبا عنيفا . هي سيدة طويلة وعارمة ، وبعد لم يمض على زواجهما أسبوعان . وقد جرب في عشرتها سطوة النساء على الرجال ، تلقفته في أحضانها من على البــاب اذا جاء في أجازة من خدمتــه العســكرية ، تأخذه لنفســها ، تهصره هصرا حتى اذا أخذها اللغب نفست تعبها لهاثا قريرا . ثم تطل عليه بعينيها المسليتين وجدائلها محلولة مدلاة . تتنهد :

ـ آه يا حبيبى ! متى تنتهى مدة خدمتك ؟

وهو ندى الجبين ، غاسق العينين ارهاقا .

قامت . من رقوده يلمح قدميها الحافيتين وسـاقيها الناصعتين فيما تدب على البساط ، قالت له :

ـ قم حبيبى والا فاتتنا زيارة عمتى العزيزة !

تفكر في هذه العمة العزيزة ، انهـا أهلكت ثلاثة أزواج قبل أن تسقط مريضة ٠

قال مجيبا زوجته :

ـ حاضر ٠٠ !

وقام ٠ خرجا ٠ مشت تسـحبه من ذراعه سـحبا عنيفا ٠

مالا في طريقهما على دار حميه ٠ نادت على أخيها، وأخـذاه معهما ٠ انه شـاب رقيق ، يحب أن يجـاذبه الحديث ، لكن أخته مندفعة بلا هوادة ٠ عرجا على دار أختها ، رحبت بهم وزوجهـا ٠ هو أشـد منه في بسطه الجسم ، وزوجته أدق حجما من أختها ، هل يكون هـذا حسنا ؟

قالت :

ـ ان عمتي في غرفة الانعاش ٠٠ !

أنصت الأربعة واجمين ٠ فواصلت :

ـ يجب أن نعجل بالذهاب ، ونقف جنبها ٠٠ !

ثم نهضت شـامخة ، ونهض الجميع ٠ تقـدمتهم خارجة ٠ هو تلفت حتى وجد عديله بجـواره ٠ تعلق بذراعه وهمس له :

ـ ان هذه العمة لم تقل بحقي كلمة واحدة منصفة أبدا ٠٠ !

تطلع اليه عديله بحنان ، ربت على ساعده ، وخفا ليلحقا بالجمع ٠

تحلقوا في المستشفى قدام الطرقة ٠ جاءت الممرضة، وقالت أن ادخلوا واحدا واحدا ، فتقدمت زوجته لتكون هي الأولى ٠ وهو تأخر خطوة حتى ارتكن عـــلى الحائط ، وغاب عنه الحـديث الهـامس حتى رجعت ، ودخلت أختها ، ثم زوجها ، ثم آخوها ، ولما رجع نظروا له فدخل ٠

رائحة الغرفة بشعة ٠ داخ ٠ تسند حتى لمس سياج السرير ٠ هو هو وجه العمة ، فقط ازداد شرا ، وابنتها الى جوارها ، شاحبة مثل أمها ، ومثلها بشاعة ٠

اسـتدار وخرج ٠ وجـدهم ملتمين عـلى مشـورة زوجته ٠ قالت لهم :

ـ انها في حاجة عاجلة لنقل الدم !

وشمرت كمهـا عن ذراعهـا ٠ وتقدمت الجميع ، تمشي بهم ناحية المعمل ٠ اصطفوا على الأريكة جالسين ، كلهم الخمسة صامتون ٠ وفي مقابلتهم الأمينة مرهقة زهقانة ٠ قالت : لنر دم من منكم يوافقها ٠٠ !

وضعت زوجته ذراعها ممتلئا أبيض شـاهقا عـلى

الطاولة أمام الأمينة . وجل من شكة الابرة الوشيكة ، صرف نظره الى السحب عبر النافذة ، يتأمل فعل الوقت بالضوء . يشحب مع الزوال .

وأفاق عليهم ، الأربعة ، كلهم مكشوفي السواعد ، يبدون كاسفين . كان عليه أن يمد ذراعه ، وأن يغمض ، وأن يصبر على الألم . وجاء دمه موافقا للعجوز . اذن ، فقد أعطاها ، وقام دائخا . هل يبقى فيه من الدم ما يقيم قامته ؟ سحبته زوجته من ذراعه سحبا عنيفا ، وهو يمشي وراءها متخبطا .

أويا الى فراشهما . عيناه بقيتا غاسقتين . ملامح وجهها بانت له حلمية ، وهي تنهش فيه نهشا ، حتى يئست منه فأغرقت في النوم . وهو بقي يقظان ، حتى آن الأوان فقام . التفت . امرأته وسيمة ، ناصعة الرقبة ، كاملة الكتف . حينذاك ، أغلق الباب وراءه .

ملأ (أورنيك) العيادة . دخل للطبيب ومعه التحاليل اللازمة . قلب الطبيب العميد في الأوراق . تمهل في فحصها ، ثم أغرق في التأمل ، ثم رفع رأسه وقال له :

ـ يابني ، .. أنت مصاب بحالة متقدمة من فقر الدم .. !!

وقد غابت المرئيات عن عينيه ، محتجبة خلف دوائر سوداء .

عمتى الحبيبة :

كنت لما أسافر لقريتى أودعمتى بزيارة لها ، نقعد قدام بابها فى الشمس وفى عيوننا دوارنا ، هنا الذى بناه جدنا ليكون بيت أفراحنا ومآتمنا . تصنع لى القهوة ، أحسوها وأستمتع بها على حلو حديثها وطرفها التى لا آخر لها .

انها سيدة مات عنها زوجها ، وترك لها ولدين . وبنات ، زوجت البنات وعمر الصبيان البيت بالأولاد. وهى نعم الأم ، وهى نعم الحماة ، تبر بالبنات وتعدل بين الكفات ، فما أطول النهار ، مشغولة بالأحفاد ، وللعيال رجيز وهرج ومرج ، يكلفها طاقة من نفسها وقلبها وعقلها ؛ تصابر اليوم بالنظر الى بناية الدوار وجمال معماره ، حتى تأوى الى فراشها ، تأوى اليه وحيدة .

فاذا ما رأتني قادما استبشرت ، تريد أن تثرثر لى عن الدنيا ، لكنها حذرة منى ، حذر المرأة من الرجل ، وحذر الريفى من ابن المدينة ، تأملت عمتى ، أرى في وجهها الشيخ الهرم فتاة صغيرة ، وأنا طفل صغير فى يوم فرحها ، وهى فرحة بزوجها • زفت اليه فى داره فى قاع الزقاق • كان رجلا ذا دأب ، ولكن كانت فيه بعض الخماقة • صبرت العمة على حمقه ، ودعمت دأبه بجلدها • وأنجبت له العيال ، مات منهم من مات ، وضاعت من نفسها بعض منها وراء عيالها في القبر • والذين بقوا خدمتهم ، أفنت شبابها حتى ابتنوا دارا جديدة واشتروا أرضا جديدة •

الآن كبر العيال وقرت عينها وتحلم بميتة تليق بها وعيناها على الدوار الذى بناه أبوها بيتا للأفراح وللمعازى • تحكى لى عن وقائع طريفة بينها وبين بنيها • حكت لى عن ابنها الأكبر :

ـ • • فقد ساقنى دلالى عليه أن أسأله ، ماذا انت فاعل بى اذا مت يابنى ؟ هل تقيم على مندبة ؟ وتقيم لى في دوارنا ماتما ، هل تعمر الدوار فى ليلتى بالقرآن من صييت مسموع ، والرجال سكرانون بالقراءة وانت وأخوك فى الجلاليب الكبيرة تمضون بين المعزين تحيونهم بما قاموا بالواجب • هل تفعل ذلك من أجلى يابني ؟ وانى لأعجب من الذى ذكرنى بالموت ؟ وسؤال

ابني عن هذا ؟ ربما لم يرقه سؤالى فقد قال لى من فوره :

ـ يا أمي ما المعزى للمرأة ؟ أيأخذ الرجل جلبابه عليه ويلف شاله على تقيته، ويأتي من أقصى البلد ويترك سهرته أمام المرناة في امرأة ؟ عزيزة على أهلها ، لكنها في البلد لا جاءت ولا راحت ، أنظرى ياأمي ماذا صنعنا يوم امرأة خالي، نورنا الدوار بالكهرباء وقرأ المقرىء ، ووقفنا وعلب السجائر في أيدينا والأباريق ملآنة بالقهوة ولا نجد من نعزم عليه ، هكذا كان مأتمنا خلوا من المعزين ، وضاع مسأؤنا هباء ونحن وقوف مدلاة أكمامنا ! والله يا أمي إن مت ما أنا مقيم لك معزى !

وضحكت عند هذا الحد من الحكاية !

وكانت تنتظر مني أن أضحك ، لكنني جمدت • غرقت في صمت عميق ووجهي عليه كآبة القهر •

كلما سافرت لقريتي مررت بها ، فتحكي لى بعضا من نفسها وتكركع بالضحك ، وأنا أضحك معها ولكنني هذه المرة جمدت وبان القهر على وجهي ، مات ضحكها رويدا رويدا حتي انكشف ضحكها عن صمتنا ، صمت بيننا ترقرقت فى عينيها دمعتان •

● طريق الموتى :

انطلقت بنـا الحافلة عـلى الطريق الزراعى الذى يربط الاسكندرية بالقاهرة ربطا وثابا خفـاقا مروع الضجيج ، ناشرا الرعب فى قلوب القـرى عـلى جانبى السكة المرصوفة • والسيارة تنطلق على حافة الخطر ، وقلبى يسبح بالذى يبقيه على حجة الأمان • يا ربى••؟

أنت اذا أردت ، طاشت العربة فى حفرة الهلاك ! آه يا ربى •• ! وأغمضت عينى عن النظر فى المشاهد التى تترى خارج النافذة ، تسلبنى وتدوخنى • الناس مشحونون فى العـربة على غير راحتهم ، كل يناضل كيما يستريح ، وفى ذلك يميل على زميله ، فيتأوه هذا ويضج ويشكو • كل الطريق ضجيج وشكوى ، حتى يذكرهم أحدهم أنهم كلهم فى كف الخطـر • لا حـول ولا قوة الا بالله • فيجلب الرجل الخوف من الخطـر من خارج

النافذة ، ويضمه في كل قلب فتزيد مخاوفه خوفا على خوف •

وفي خارج النافذة ، وعلى آماد • البعد يقف الريفيون يحدقون في السيارات المنطلقة على الطريق السريع ، وفي وجوه الريفيين غبرة ولمسة رعب ودهشة عميقة • هذا الطريق يقسم العالم الى ما قبله وما بعده • ما قبله القرية ، وما بعده المقبرة • أى نقص يعتور العالم بهذه القسمة الشائهة ؟ كيف تسد سكة الموتى الى منازلهم في المقبرة ؟ كيف تقطع السكة بشرعة الرعب والموت ؟

فاذا بالناس خارجين من قرية على شمال الطريق • جمهور حافل ، جلاليب وتقايا وعزم لا يقهر ، وبيرق الجمع الحاشد نعش مسجى عليه رجل من الريف • هل أطال الرجل قبل أن يموت وقوفه على جانب الطريق الزراعي يتأمل انطلاق السيارات الخارق وقلبه ممتلىء بالخوف ؟ الآن مات وركب نعشه وكان راية للخروج ليقف في شرعة الرعب والموت • . .

بدأ الزحام ، جلابيب وأكمام ترتفع ملوحة ثم يزداد الزحام كثافة ، والعربات تراوغهم وتنفلت من خلال الفرج بين صفوفهم ، والزحام يلح ويشتد حتى تحول الى سد بشرى على السكة المرصوفة ، فكان ان وقفت السيارات على ضفتي الطريق •

الآن هدأت حافلتنا ، وظلت تركز سرعتها حتى

انتهت الى الوقوف في صف السيارات تئن دواليبها بلا معنى ، وترتجف أجسادها ، وقلق السائقين ، وقلق الركاب ، بينا حشد أصحاب الجنازة يفرض ارادته الرهيبة ، والنعش عائم على بحر من الملامح السمراء في وجوه متعبة مغممة ، دقائق بلا نهاية ، ثم بدأ الركاب في حاملتنا يشملهم حالة من الحبور الرائع ، يضحكون من كل قلب ، ويزعقون من كل حلق ، ياسلام على الريفيين ! اذا مات منهم واحد يحتفلون به بكل امكانات الاحتفال ، قرآن ، وأحمال الطعام على الصواني تحمل للمعزين • وفي ذلك يمشي جمهور النعش بأقدام بطيئة على السكة المرصوفة ، والعربات السائرة تنتهي الى وقوف في نهاية الصف على اليمين وعلى الشمال •

بذلك التأم عالم القرية بعالم المقبرة لدقائق خوالد فيها انتصر الموت على الموت ، وعبدت سكة الموتى الى مقرهم الأخير • انصرم بعد ذلك موكب الجنازة • ثم بدأت السيارة تمشي بطيئا أولا ، ثم تأخذ منتهى سرعتها ، وفي القلوب بقايا من حديث الموت ، وعلى الوجوه سحابات وجوم وصمت •

● طارق بيابي :

أنا أحوج ما أكـون لتأمل ذاتي ، وقـد غادرتني زوجتي ومعها ولدي . قالت انها تقصد أن تزور أمها ، وتركتني لوحدتي وعللي .. جلست مكتئبا عـلى ديوان الردهة صامتا ، منتكسا ، شاردا ، حتى كبس على حلول المساء دونما نور في وجه ظلامه حتى أرى أخيلة عـلى صفاء العتامة ، تتلعب شخوص الخيـال وتحاورني ، وتنقض على عمق سكوني .

فاذا بي أسمع نقرا على باب مسكني ، أقوم وأظلع وأنا ألهث ، تخبطني أشباح الكراسي السـوداء ، أدمع من فرط مذلتي بضعفي ، فتحت طاقة في الباب فاذا بي أرى وجه أبي في المـربع الذي يصـل وحـدتي بقدوم والدي . فرحت . تدفقت من قلبي أنهار الدموع دافئة

تسيل على جروح عمرها مائة عام . قلت لأبى عبر طاقة الباب :

ـ مرحبا يا أبى ، أجئت تزورنى يا أبى .. ! نعم. أوحشتنى كثيرا ، منذ مت ، وأنا كنت يومها فى سجن الاسكندرية ، وحين علمت بموتك كتمت دموعى حتى خلوت لنفسى بالليل ، آه من حزنى على فراقك يا أبى . ! أصبحت أحدثك فى الرؤى ، أبثك آساى وأشكو لك من احتيال الأيام على قهرى ، الحلم والحقيقة فى النهار ، بينهما أمشى منكسرا فى دروب دنياى ، أهلا بك يا أبى أنت جئت تزورنى .. !

قال أبى يتفزز من العافية فى جسمه وحوله عـلى القول ويلوح بيديه حتى دب الخوف فى أوصالى :

ـ انى قد أرقنى فى قبرى انك يابنى تركت سيرة الصالحين ، وليس فى رمضـان فى بيتك قـرآن يرتله حافظ ، وليس على مائدتك يشاركك الطعـام فقير أو مسكين .. !

بهرنى قول أبى فصمت :

ـ يا أبى انى لا أعـرف حافظا أرتبـه فى بيتى ، والسخن اختلطت ، المحتال يرطن رطانة المحتاج ، وأنا أخاف .. !

استرسل أبي :

ـ الناس خير ، وفيهم حافظون كثيرون ، والذى احتال عليك بفقره فخذه بحيلته واكرمه ، والذنب فى حيلته لله ٠٠ انه هو يبدل خوفك أمانا ونعمة ٠٠ !

حوصرت بقول أبى ولا حيلة لى فى النجاة ، قلت كاليائس :

ـ ان دارى صغيرة توشك أن تضيق بنا نحن الأربعة، نتحرك بين الأشياء فى مسارب ضيقة ، تكاد تخنقنا يا أبى ٠٠ !

فاخذه من مقالتى الغضب ، يلوح بيديه ، فتنزاح الحيطان فى الردهات والغرف ، وتتسع ، وأنا يقع فى قلبى زلزال الجدران تتحرك من أماكنها ، ويهدر أبى:

ـ وسعت الدار ، الرجل وعياله وفضيلته وكرمه ، وسيرته الصالحة ، فان ضاقت عليه بما فى نفسه من ضيق ، اسلم تسلم تبرأ من علتك ٠٠ !

قلت لأبى :

ـ آه يا أبى ، اننى أحتاج لتضمنى الى صدرك ، خذنى لحنانك الذى اشتقت له كثيرا ٠٠ !

مددت يدى من طاقة الباب مشرع العينين لوجه أبى، وجه أبى مزق مسودة من الجلد ، تسلخت عن العظام ، حفرتا عينيه مليئتان بالدم الجاف ، ومنخاريه ، وصف

أسنانه عارية من الشفتين تصطكان بالكلمات .. هو الموت . التفت للوراء ، أستند على الكرسي ، سقط تحت ثقلي، فتهاويت الى مالا نهاية . ثم افقت على وجه زوجتي التي رجعت في آخر المساء ، مرعوبة تهتف بي :

ـ ماذا بك .. ماذا بك .

وابنتي وابني واقفان وجهاهما خامدان . والجاران اللذان ساعدا في نقلي من حيث وقعت على أرض الردهة الى فراشي ، الكل يحدقون في ، همست فيهم :

ـ لا شيء .. لا شيء .. لا شيء .

• الجنازة :

مر بي جمهور الحزاني يحملون نعشه ، يمشون مثقلين لا يبين خفق نعالهم في أرض الشارع ، وأنا جالس في شرفة دوار أبي • لا • لا أمشي مع المشيعين مصطنعا الأسى حتى المقابر • لا • وان رمقني الرجال بالنظرات الغضبى ، على قعودي عن الواجب والنكوص متشبثا بعنادي ، أواجه عيون الناس الماتبة لا أطرف أبدا •

جلست في مكان أبي على الأريكة متفززا ، يحرك الغضب أعضائي والقلب ، أصيح ولا أحد يسمع صياحي • من زعيقي تتزلزل الدور وتميل النخلات ولا يسمع حس • قمت برغبتي ، بخيالي وأنا لا زلت جالسا ، مشيت لا ألوي على ترددي وأنا القعيد ، مشيت حتى أدركته ، والناس أطلوا ، ثم لبثوا جامدين ، ثم

أمالوا الخشبة حتى واجهتني ، وأنا علوت واستطالت أعضائي حتى فقته طولا ، وكان وجهه في احتيازي ، هتكت الكفن عن ملامحه ، كان صفاء الموت مرسوما على بلاقع الجدب هنا · دخت · لكنني تماسكت ، تمشيت في الباحة التي خلت بتراجع الناس ، ألوح وأخطب في سكون الجثمان المسجى :

ـ كنت تقرأ دلائل الخيرات في صف الدراويش ، وأبي يطل عليكم بالحنان ، وكان يخصك بأكثره ·· !

وكان رده هادئا لا تتحرك به شفتاه ، لكنه به يصطنع صمت الناس والبرود في قلبي :

ـ وأنا كرهت أباك بحنانه · يتخذ صورة الأب وليس هو ، كنت أعيذ به هوان أبي ، اقتداره على فقرنا · لكنه كان أباك فقط ، ونعمت به يا أخي ··!

قلت له :

ـ لا · ان الله ضربك بالشلل في وجهك ، انحرف وشاه ، بالسكر في دمك ، وارتفاع ضغطه يزحم عروقك ·· !

قال :

ـ نعم · نعم · انى ميت ، وأنا ذاهب الى الله من فورى ، ولى عنده عظيم العتاب ، كيف حاصرنى بالموت

من كل سـبيل ،كيف ابتسرنى من الحيـاة وأنا ملء بالشوق لا يفتر ٠٠ !!

قلت له :

ـ جلس ولداك الطبيبـان بجـوارك لا يفتح الله عليهما ببلسم لعلتك ٠٠ !

قال :

ـ أحبهما ،رجلان من صلبى ، تعلما حتى وفقا ، وبما حملته رحم أم الهنا وملأت الدار على ٠ حرت ٠ كيف ضاق علمهما بعلتى ؟

قلت له :

ـ بما أنك انتزعت أم الهنا من زوجها ٠٠ ؟

قال :

ـ امرأتى حلالى ، من ساعة ما شفتها ، امرأتى لو كان عقدها معقود على ألف رجل ، هى حلالى يا أخى ٠ !

قلت له :

ـ انك قفزت عليهـا فى ظـلام غرفتهـا من طاقة السقف ٠٠ ؟

قال لى :

ـ هى لقطتنى اذ نزلت عليهـا من طاقة السقف ،

تداوى جروح جلدى وجراح قلبى بريقها ، ثم حملتنى الى الطاقة خروجا - أمشى - أمشى بين النــاس بوجع حبها .. !

قلت له :

ــ حتى مات الرجل ؟

قال لى :

ــ قطعه الله عن ظلم امرأته ، وهأنذا يقطعنى الله عن هنــائى ، عن امــرأتى وولدى ، ودارى الحــافلة بالخيرات !

ان لى مع الله عتابا !

قلت له :

ــ قطعك سبحانه عن أكل الحــرام ، تبيع بأربعين ما قد شريته باثنى عشر .

قال لى :

ــ بعت للمحتاج ، اشترى غير مقسور ولا مرغم !

قلت له :

ــ انك غششت الحكومة واستغللت حاجة الناس .

قال لى :

ــ شــطارتى اذا جلبت واذا بعت ، شــــطارتى ، والحيلة هى من التجارة فى القلب .. !

قلت له :

ـ ضبطك مفتشو السلطة بالبيع الردىء ، فحملت ذنبك ملء زكيبة حتى مركز الشرطة ٠٠ !

قال لى :

ـ كسرنى هذا والله يا أخى ما برئت منه أبدا ٠٠! نعمتى من نفع الناس ، ونعمتهم فى ايذائى ٠٠ ! أنظر تعرف الفرق !

قلت له :

ـ ابناك الطبيبان سمنا على الحرام ، لا يفقهما فى فنهما تعليم ٠٠ !

قال لى :

ـ لا ٠ لا ٠ انما الخطأ فى مكان لا يطـوله ظنى ، مت وما علمت ٠٠ !

قلت له :

ـ تأخذ فرشـة الصـلاة معك الى مركز الشرطة ، ومصحف القرآن ، تحيى الليل فى الحجز قائما بالعبادة ؟

قال لى :

ـ انما الفرشة وقاء جنبى من البرد والوسـاخة ، وأما كلمات القرآن أتدبرها كما تدبرتها عمرى ، ولى فيها مع الله عتاب ٠٠ !!

قلت له :

ـ ما أكرمك كنت فقيرا أيها العزيز :

قال لى :

ـ كانت لى مواجع، يدوسها الناس بالترفع والعطاء، وللثروة مواجعها ، مصـونة فى البيوت العالية ، فى الغرف مسدلة أستارها . . !

قلت له :

ـ ان الله قدر أقدارا ، رفع وحط . . !

قال لى :

ـ كبرياؤك ، ودفء اعزاز أبيك لك ، وأنا تركت لعناصر المناخ ، وكرهت أباك ، وأنا رائح عليه بلومى له ، استر وجهى ، ولا تعوق مسيرتى لقبرى . . !

سحبت قماش الكفن على الميت ، والناس ينظـرون لى . عدلوا النعش والتأموا حوله ، ومشوا به ، صحبوه، وأنا تركت لوحدى . عدت من الرحلة الخيالية الى مكانى على الأريكة فى شرفة دوار أبى ، بردان غارق فى العرق ذاهل أعد الخطوات حتى وصـلوا المقبرة. سـجوه فى قبره ، لقنوه حجته ثم سأل الحافظ الناس :

ـ ما تشهدون ؟

قلت هامسا مع جمهور المشيعين :

ـ انه كان صالحا .

القاهرة فى ٢٨ / ١ / ١٩٨٩

الفهرس

● جدل العنف والوهن ٧

صاحبة النزل ٧

واحد من أهل الله ١١

انتصار ١٥

الخوف ١٩

حالات الجسد ٢٣

ترديد المانى ٢٧

الذبح والذبح أيضا ٣١

● مطر ٣٧

الجراحة ٤٧

إلى سجن أسيوط ٤٧

طبيب السجن ٥٠

فى مستشفى السجن ٥٥

فى مستشفى أسيوط الأميرى ٥٩

الرجوع إلى السجن.. ٦٣

● السرى بالليل.. ٦٧

● جدل الحياة والموت.. ٨١

الرعب... ٨١

عمتي الحبيبة.. ٨٥

طريق الموتى... ٨٨

طارق ببابي... ٩١

الجنازة... ٩٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٢٧٦ / ٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01.- 7589 - 7

♦ ♦ ♦ ♦

بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الابن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن علي التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك

Bibliotheca Alexandrina
1111301
36
3di
1

مكتبة الأسرة 2001
مهرجان القراءة للجميع

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥٠ قرش